رواية

# في البر الغربي

تأليف

محمد عبد العليم



# بطاقة فهرسة



**مكتبة جزيرة الورد**

اسم الكتاب : **رواية في البر الغربي**

المؤلف : محمد عبد العليم

رقم الإيداع : ٢٠١٨/٤١٩٣م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٣٤-٠٣٤-١

**الطبعة الأولى ٢٠١٨**





# تقديم

فى البدء كانت الكلمة ومن الكلمة خلق الله الكون ، إذ قال : كن فكان )

وبالكلمة تفعل المستحيل ، وعـن طريقهـا نعيد تشكيل الأذهـان ، ونحـارب الخرافـات ، ونقف صناديد أمام الظلم وأمام القهر وبالكلمة تنتهي

حين قرأت تلك الرواية التي بـين أيـديكم لأول مرة أصابني انبهار جم ، من قوة السـرد ، وجودة الحبكة ، حين أمسكت مسـودتها الأولى بين يدي لأول مرة ولم اتركها إلا حـين انتهيـت منها ، الأحداث متتالية متتابعة لا تشعرك بسـأم أو ملل ، سـرد جميـل منمـق والوصـف كـاف ،

لا فائض ولا مختصر . تلك الرواية كتبت بقلم له مستقبل . أتشـرف أن أعلن عن مولده ، مولد كاتب إن استمر في الكتابة سـيخلد اسـمه في الأدب المصري .

**محمد راشد**

**كاتب وروائي فلسفي**

# الإهداء

إ روح والدى

ر هما ا ،،،

« رب قطعة من الفرح

تذوقاها بعد ،،،»

ابنكما

محمد عبد العليم

المحامى

## ملحوظة

جميع القطع الغنائية التى تخللت الـنص الروائى هى من تأليف الكاتب

# ▪▪ صعيد مصر / مغاغة ٢٠٠٠

يسكن البيت الحجري العتيق رجل فى منتصف العقد السابع من حياته .. كأنه قطعة من البيت .. غضون السنين على وجهه تماما كالحجارة المعروفة للبيت القديم

البيت يقع فى الجانب الشرقي من شارع الكنيسة القديمة بمغاغة، حوله سور متهدم بعضه من داخله مساحة واسعة مرصوفة بالحجر البازلت .. تطل عليها « برانده » من داخلها صالة فسيحة تفتح فيها غرف يمنة ويسرة .. تنتهي الصالة إلى درج يصعد إلى الطابق الثاني حيث القبو الزجاجي الملون الاسطواني وبه نوافذ تطل على كافة الأنحاء

هذا الشيخ السبعيني الأزهري .. خاتم القرآن حفظا فى صباه .. ترك تعليمه الجامعى بعد وفاة والده ليعول أسرته.. هو المثقف واسع الاطلاع وصاحب العقلية التحليلية الرائعة والمنطق السلس الملىء بالإقناع فى كل ما يتناوله فى مختلف جوانب الحياة .

يعيش وحيداً في هذا المنزل إلا من رجل يقوم على خدمته .. فاستحق وبحق كما أطلقوا عليه « فيلسوف الألم» ، .. إنه «الشيخ بركات أبوالعينين »

هناك ما يؤرق هذا الرجل الكبير ويقض مضجعه ويسهد جفنه إذا ما مر خاطره بتلك المرأة التى وهبته حبها وكل ما تملك فى الحياة .. ولكنه تنكر لكل ذلك فى لحظة واحدة .. فحينما جرفه الحنين إلى الولد والنسل واستبد به ذلك الشعور فكر فى الزواج من غيرها بعد كل هذا العمر الطويل .. تزوج من فتاة صغيرة كانت تناديها بجدتى فى ميوعة واحتقار وكان ذلك على مرأى ومسمع من الشيخ والذى لم يحرك ساكنا إزاء جرح وسحق مشاعر تلك المرأة الكبيرة .. فقررت المرأة الانسحاب فى هدوء بعد عمر ودهر طويل إلى بيتها الأول وهو منزل أبيها .

والغريب أنها ماتت بعد أيام معدودة من الإقامة فى بيت أبيها .. ذلك الأمر جعل الشيخ يعتبر نفسه المسئول الأول عن موتها .. فراحت تلدغه عذابات الضمير بين الفينة والأخرى وتسلمه لآتون من السعير المتقد في كيانه وروحه فيظل يسأل ويتساءل : هانت عليّ بعد كل ذلك العمر كل ذلك الحب كل ذلك الإخلاص .. ماذا فعلت ؟ .. لقد قتلتها !.. ماتت بعدما انتهيت أنا كرجل فى نظرها إذ

تغاضيت عن إهانتها ودهس كرامتها .. فهجرت قبرى وتركتنى وهى محطمة الكيان تتداعى روحها حتى أسلمها ذلك إلى النهاية !

وتفيض دموعه ويبكى بكاء موجعا يسيل له أقسى القلوب .

أراد الشيخ منذ زمن بعيد التكفير عن هذا الماضى الأسود وذلك الذنب فألزم نفسه بالإنفاق فى جميع أعمال البر والعطف على الفقراء والمساكين .. وبناء المساجد .. وانقطع للعبادة والصلح بين الناس .. استحال وبجد رجلا من الآخرة .. لقد أذهله ذنبه وجرمه عن بهرج الحياة وزخرفها فزهد فى كل ما فيها واعتزلها إلا وجوه الخير والإصلاح .

إلا إن ذلك لم يجد مع الرجل .. رأي ذنبه أكبر وجرمه أعظم .. فلم يسترح .. ولم يستنم ضميره .. إن كل نسمات الرحمة التى يرسلها قلبه وأشعة الإحسان المنبثقة عن روحه إلى كل ما فى الوجود لم تنعكس رضا وسرورا على نفسه .. متى أشعر بالرضا ؟ .. متى أسعد ولو هنيهة ؟ .. ياالله !! «.. هكذا كان يطارده ذلك السؤال .

صلى الضحى وتناول إفطاره وطالع بعض الجرائد

العناوين مكررة – تكاد تتطابق .. اغتصاب !.. سرقة ! .. اختلاس أموال عامة !.. قتل ابن لوالديه ! .. القبض على قاض

وبحوزته مخدرات ! .. السجن للمعارض فلان .. الاعتقال لشباب وبحوزتهم منشورات !! ... الخ ... الخ .

حدث نفسه :« نفسها هى العناوين .. هو الكذب الصراح للمسئولين .. نفسه هو الثالوث المخيف للحاكم .. » الجهل – الفقر – المرض « .. الثالوث المتربع بأياديه الطولي العفية .. لافكاك منه .. لا خلاص بعد » ..

وتذكر أحوال العالم والناس المليئة بالهم والغم .. والألم الذي يرقد على الطرقات وفى البيوت والدور .. الألم بات مصاحباً للناس فى كل شئ وكل أوقاتهم . اليأس أضحى بقلب الطفل والرجل والشيخ الكبير ..

وفى المساء عبث بأوراق قديمة توقفت عيناه على إحدى الورقات .. أمسكها .. تفحصها .. إنها رسالة من زوجته الراحلة .. كانت وقت كتابتها فتاة تحبه ويحبها وكانت هذه كلمات الرسالة عزيزى « بركات » ربما هذه تكون آخر كلمات تقرأها لى .. عزم والدى أن يزوجنى من ابن رجل ثرى فى الجبل الغربي.. وداعاً » .

اعتلجت الذكريات فى نفسه .. دفعه الحنين الجارف لتلك السنين .. السنين التى عاشها بكل حياة الحضور الكامل التى لم يك ينقصها سوى الخلود !! تذكر كيف أنه صارع من أجل الفوز

بمحبوبته وكاد الأمر أن يصل للتصادم الدامى مع عائلة محبوبته

ندت على وجهه زفرة أسى طويلة .. تنهد بقوة كأن سلافة روحه تغادر جسده .. وتمتم ببعض أبيات للشاعر أحمد رامى :

**ذكريات عبرت أفق خيالى**

**بارقاً يلمع فى جنح الليالى**

**نبهت قلبى من غفوته**

**وجلت لى ستر أيامى الخوالى**

**ذكريات داعبت فكرى وظنى**

**لست أدرى أيها أقرب منى**

**هى فى سمعى على طول المدى**

**نغمٌ ينساب فى لحن أغن**

آلمه وقع الذكريات .. فأطرق فى وجوم وسهوم وصمت .

أثناء ذلك جاء لزيارته بعض شباب من عائلته – حيوا الشيخ وسلموا عليه وجلسوا ..

لاحظوا سهوماً ووجوماً على الشيخ على غير عادته : فالرجل

دوما يخبئ أحزانه وهمومه بزاوية من قلبه ويعزلها تماما عن شعوره فى معاملاته مع الناس .. يأبى الألم العزيز لديه أن يوزع حزنه ومأسيه على أحد .. فقلما يراه أحد حزيناً أو بادياً عليه الأسى، نظر « سلمان » للشيخ وسأله :

- مالك ياعمى ؟ .. أحدث شئ ؟ ..

- لا .. أبداً .. لا .. أنا بخير .. الحمد لله

فى ضيق أردف « مأمون »

- ليس هناك خير .. الضيق يحاصر الناس .. والجميع مكبل .. قال « سالم ».

- مكبل بالخوف .. الخوف على حياته .. على لقمة عيشه .

- هز الشيخ رأسة وتأهب للرد وأرد ف قائلاً :

- مادام الحال كذلك ... فالخوف هو السيد .. هو الحاكم .. الخوف وليدالجهل ، والتخلف ربيب اللاوعى .. وقلعتهم الحصينة الفقر وثمرتهم المسمومة المرض !!

- حقاً ياعمى وبجد – أنت فيلسوف الألم !! .. أتقصد ياعمى الثلاثة ؟ .. الجهل والفقر والمرض !! ..

- نعـم – الثـالوث المـدمر للشـعوب والمجتمعـات .. وعـنهم يسرى الـوهن والضـعف .. وتصـدر للنـاس الأوهـام والمقـولات السـخيفة . القناعـة !... مـن يرضـى يعـيش ! .. ادفـن رأسـك بـين الرؤوس .

- أوليست القناعة كنز ياعمى ؟ ..

- احتد الشيخ وأشاح بيده وهو يقول :

- أى قناعة تكون مع الفقر ؟ ! .. أى قناعة مع متسول ؟

ربع الشـعب تحـول إلى شـحاذين ، ويقولـون لنـا قناعـة .. إنـه الاستسلام .. الكسل .. التواكل .. انعدام الإرادة والعزيمـة إنـه فقـر للروح ! .. إنه انكسار للنفس ! أنه اعتياد على مرارة الذل .. فالذل إذا حل بالنفوس فإنه ينسيها حتى وقت نزوله بها .

سالم وهو يوافق الشيخ :

- نعم .. صحيح .. الواقع كابوس مرعب .. أين الحرية ؟ ..

- ابتسم الشيخ فى هزء ساخراً

- الحرية – كلمة ملعونة ! .. ليس لها معنى فى أجـواء الجهـل والفقر والتخلف واللاوعى .. والخوف والقهر والذل

سأل : مأمون

- ومن المسئول ياعمى ؟..

- الجميع مسئول .. لايعذر من يلغى نفسه ووجـوده .. إن الله ليأبى على الإنسان الرضا بالعجز وهو الصحيح المعافى .. أعنى عجز الإرادة وخور العزيمة .. البشر من يسطرون مصـائرهم .. والإنسـان وحده أسير فعله ..

- أوليس الله من كتب على الناس مصائرهم ؟ ..

- الناس من تحدد مصـائرها بأيـديها .. مـا يكتبـه الله اختـاره الناس ورضوه

- وما الخلاص ؟ ..

- فى العلم والتعليم الصحيح .. فى التنوير والثقافة والـوعى .. عنده سيقهر الجهل .. ويتبدد الخوف .. وستولد شـخوص قويـة .. شـجاعة .. مسـتنيرة .. ولكـن ذلـك مرهـون بـالإرادة والعزيمـة .. مرهون بروح طواقة لعنـاق الاسـتقلال والحريـة .. الـروح الجريئـة المثابرة .. مثل إرادة وروح وعزيمة جدى « همام الدرايسـي » الـذى واجه كل ما نتحدث عنه فى محيط مضطرب هائج ولكنه قاد السفينة ونجا ومن معه .. وخاض الصراع مع الظلـم فى البـر الغربـى للنيـل

السعيد .

وسأل « سالم » و « مأمون » وكذلك « سلمان » ..

- كيف ياعمى ؟ .. كيف فعل جدنا ذلك ؟ ..

اعتدل الشيخ فى جلستة وراح يروى فى أسلوب شائق وأخاذ ما وقع فى الماضى البعيد وكأنه ينفخ فيه سحر بيانه فيبعثه من جديد حقيقة لعين الرائى وملء آذان السامع ما حدث فى البر الغربى للنيل السعيد بمغاغة .

## ■■ صعيد مصر / مغاغة ١٨٥٠

أمام قصر الخواجة أمسك رجل بلجام الحصان « برق » وانحنى آخر كعلامة استفهام ووضع « الخواجة حبيب » قدمه فوق ظهره وهم مستوياً على ظهر جواده ، عند أقدامه لهث جرياً خمسة رجال يحملون بنادق .. سار الخواجة في ممر أوله عند بوابة قصره وينتهي شرقاً عند البر الغربي للنيل السعيد، تحف الممر من جانبيه مزارع الخواجة وأطيان وحدائقه الغناء .

انعطف يساراً ووقف عند مخازن الدايرة ، انحنى ذاك الرجل ووضع الخواجة حذاءه ونزل على ظهره .. وأسرع آخر فأمسك لجام « برق » .. كان هناك خفير الدايرة يمسك برجل خزياناً باكياً .. نادى الخفير على الخواجة ونظر إليه .. قال الخفير بصوت متهلل مملوء بالبشر والسرور كما لو كان رسولاً يزف خبر انتصار الجيش

« يا سعادة البيه !.. يا سعادة البيه ! .. إنه الولد « ابوالعودين » الحرامى ! .. أمسكته وهو طالع على سور الدايرة الخلفى .. كان

حامل على ظهره كيلتين القمح وأشار الخفير إلى ثوب قديم بال مربوط قد حمله الرجل على كتفه ... ابتسم الخواجة فى رضا عما فعله الخفير .. وأمر رجاله فأوثقوا رباط الرجل إلى جزع شجرة وسط دموع وتوسل لا يشفعان أبدا . وبدا يصرخ بأعلى عقيرته : عندى أولاد جوعى ياخلق ! .. مر عليهم يومان من غير زاد ! .. والله يابيه يومين ! .. وأنا والله ربط بطنى من الجوع .. انظر يا بيه : اكشف عن بطنى .. ستلاقى حبل من الليف .. حبل ليف ! .. ربط به بطنى »

« والخواجة حبيب » يقهقه فى نشوة غريبة لكأنه سكر من خمر عتيقة وصرخ بأعلى صوته : انزع ثيابه ياولد واضربوه على جسده عرياناً . تم تمزيق الثوب .. وكان ثوباً واحداً فقط .. وكشفت عورته .. وانهالت عليه ضربات العصى .. شج رأسه .. تفجر الدم منه .. غطى الدم وجهه وعينيه .. ومن خلال نظره الغائم رأي صور الرجال تهتز أمامه .. دقق مرة أخرى وإذ بالنور الذى قرأ على هديه الحياة الحافلة

( ١ )

بـالمرار والأسـى
والآلام يتضاءل .. يخبو
.. ثـم انطفـأ إلى الأبـد .
واستمر ضربه حتى أيقنوا
أن حركته انعـدمت تمامـاً ..
أشار أحدهم بالكف عن الضـرب
.. أمسك بيد الرجل ووضع يده أسفل أذنـه
.. مات ! .. إنه ميت !! .. هكذا قال الرجل .

أمر « الخواجة حبيب » الخفير بحمـل الثـوب الـذى بـه القمـح ليرجعه إلى مخازن الدايرة .. وحث باقى الرجال بحمل جثة الرجـل وتعليقها فى الشجرة ليكون عبرة لغيره .

بقية من ضمير لدى أحدهم فتعـاطف مـع جثـة الميـت فنـاجى الخواجه متوسلاً وهو يلثم يديه وأقدامه « لا يا بيه .. لا .. اترك جثته وكفى.. كفى ذلك .. » استشاط الخواجة غضـباً وانهـال بالسـوط فى يده عليه صارخاً ومرددا : « يا ابن القحبة ! .. أنت من حرضـته عـلى سرقتى .. أنت مـن حرضـته » وأمـر بـاقى الرجـال فـأوثقوه مكانـه وضربوه .. وعلقوا جثة القتيل في الشجرة وهى تتدلى وتتأرجح بيد أن

الرجل الآخر طفق يصرخ قائلاً : « ارحمنى يابيه ! .. أنا رجلك .. أنا خادمك .. » ولكن كل توسلاته ذهبت مع الريح .. والخواجة يدفع رجالة نحو ضربه .. مزيد من الألم والعذاب لكى يستمتع الخواجة لذة «إنزال الألم بالعبيد !! .. هو أسماهم - بالعبيد ... وقف ناظراً لمشهد الجثة المعلقة ومشهد الموثوق إلى جزع الشجرة وهو يستمرئ كأنه مذاق لشراب غاية فى الحلاوة والروعة .. وانصرفوا وتركوا الرجلين .. مربوط إلى جزع شجرة يصرخ باكياً .. وآخر جثة تتأرجح فى حبل .

أذن الخواجة لأحد رجاله أن ينادى فى الناس بأن الخواجة قتل كلبين أحدهما جثة معلقة فى شجرة والثانى مربوط فى ذات الشجرة والمنادى يذكر اسمى الرجلين

« أبوالعودين الحرامى» !! والثانى خادم الخواجة « الجبالى أبوخطوة » شريك الحرامى فى السرقة .

ألجم الناس الخوف وأخرسهم الرعب وشل أقدامهم الجبن .. فلم يجرؤ أحد على التحرك والمشى .. حتى حب الاستطلاع مات لديهم ... كل شئ مات فى نفوسهم .. هم لا يحتاجون سوى الدفن .

خرجت زوجة أبوالعودين تبكى وتولول تحمل رضيع فى حضنها وتمسك يدها بطفل حافي ممزق الثياب .. وعلق ثالث بثوبها

.. الأطفال يصرخون جوعاً .. والآن يصرخون خوفا وفزعا بصراخ وبكاء أمهم .. المرأة تجرى وتهرول إلى أخر الدور والمنازل وتعود أدراجها .. في يقينها إن الموت الأسود فى انتظار أولادها هناك في الغيطان وعند شجرة الكافور والساقية المهجورة .

الكل يرى قلبها المتفجع وعينيها الزائغتين والفزع يقفز منهما رأوا انكسارها وقلة حيلتها وأطفالها الصغار .. بيد إنه لا نخوة ولا مروءة ..

كذلك أهل « الجبالى أبو خطوة » وإن كانوا قد تبرأوا منه منذ أن صار كلباً للخواجة .. والكثير منهم ملأته الشماته والفرح وقالوا : ليشرب من نفس الكأس !! .. طالما سقى الناس من مر الخواجة .. كان يوما يد الخواجة !! .. عض الخواجه اليد. لكن أولاده وإخواته طأطؤا رؤوسهم وانكفأوا مذلولين مدحورين .. لم يتحرك رجل منهم قيد أنمله .. وكأن أخاهم سيحل وثاق نفسه ويرتد إليهم ظافراً غانماً .. أو سيعود إليهم جثة تمشى على أقدامها طالبة دفنها .. أو ربما تدفن نفسها .

الخوف الذى ترعرع نباته فى ظل جبنهم ورواه جهلهم وتعهدته أياديهم المرتعشة فتركته دون اجتثاث . زحف وتسلق على نفوسهم وغطي أجسادهم ودورهم .

ثمة طريق به بصيص من النور فى آخره .. لمحته فى هـذه الوهـدة إنه طريق أولاد « همام الدرايسي » فواز ، « همام » وبـاقي إخـوتهم .. حثت خطاها لوجهتهم وهى تسير الهوينى فى ذل ولوعة وانكسار بين دموع أطفالها وصرخاتهم.

قتل الخواجة حبيب « أبـو العـودين » ومصـير « الجـبلاوى أبـو خطوة » بين الحياة والموت .. وإن غلب الظن عـلى موتـه .. ولكـن أين القانون ؟ .. أين السلطة المنوط بها حماية الناس وبسط القانون ؟ .. القـانون !! .. القـانون هـو الخواجـة « حبيـب » .. وكـذلك هـو السلطة ! إنه يستمد سـلطته وامتيازاتـه مـن الخـديوى حـاكم مصـر المحروسة والبلاد كلها حتى السودان .. قيل إن والد الخواجة جـاء به محمد على باشا وكان مهندساً ماهراً فى شئون الرى وأصله فرنسي .. وهناك من يقول : إن والـده يونـاني – لايعـرف عـلى وجـه اليقـين جنسيته بالضبط .. إلا إن المعروف عن ديانتـه أنـه يهـودي وهـؤلاء منحهم محمد على باشـا امتيـازات لم تمـنح حتـى للأصـول التركيـة ناهيك عن البشوات والبكوات المصريين .

إذن الخواجــة يمتلــك الأرض وكــذلك الفلاحــين .. وهــو المتصرف فى أرزاقهم وأقدارهم .. إنه الحاكم بأمره .

صوت بكاء المرأة ونحيبها اقتحم على أولاد « همـام الدرايسـي » دارهم : فنادي

« همام » سائلا : من المرأة الباكية ؟ خرج ابن أخيه « فواز » إليها ثم دخل بها وأطفالها إلى « همام » الذى قام إليها يربت على رأسها وعلى أطفالها مواسياً فى حنو بالغ وسائلاً « أيخصك أحد ممن كان المنادي ينادى عليه ؟ .. أهو قريبك ؟ ...

- زوجى يا أبو الرجال .. زوجى « أبوالعودين » .. «أبوالعودين » الغلبان مقتول !! ومرمى جثة فى الغيطان .. غلبان ومقطوع ليس له قريب فى البلد كلها .. والناس خائفة ! .. الكل خائف .. ولا واحد حتى تحرك خطوة ناحيتى وسألنى : مالك ؟ .. ولا واحد واسانى بكلمة يا « أبو الرجال » .. سألها « عثمان » هل عرفت سبب قتله ؟ .. والله يا « أبو الرجال » نحن وأولادنا بقى لنا يومين بدون أكل ولا زاد « طلع الرجل وهو يبكى واخذ معه جلباب قديم .. وقال : أنا لازم أتصرف .. «أروح أجيب أى حاجة لاجل الأطفال !! »..

الأطفال بيصرخوا من الجوع وانا « وابو العودين » ربطنا بطننا لكن والله ما كنت اعرف إن « ابو العودين » فى نيتة مخزن الدايرة ... دايرة الخواجة !! .. والله ما كنت اعرف .. كنت منعته ..نادى « همام» على أهل الدار وأمر بصنع وإعداد طعام على الفور .. وتوجه إلى المرأة قائلاً : يا أختى من أجل خاطري ليأكل الأطفال وكلى أنتى معهم .. وبعدها كله سهل بمشيئة الله .. سنذهب أنا والرجال

ونجيب أبـو أولادك .. اطمئنـى .. حتـى لـو كلفنـا ذلـك حياتنـا .. اطمئنى.. »

جاءوا بالطعام وأخـذ « همـام » يعطـيهم بيـده وهـو يربـت عـلى رؤوس الأطفال ويقبلهم .. وظل هكـذا حتـى شـبعوا وفرغـوا مـن طعامهم .. حتى المرأة المكلومة حثها على تناول طعامها حتى أكلت مع أولادها ووضع يده واخرج محفظته وأعطاهـا ورقـة ماليـة وهـو يقول : « خذى يا أختى .. خذى .. حاجة بسيطة .. من أجل أطفالك .. وأنا مستعد فى أى حاجة تحتـاجين لهـا .. إنـه مـن فضـل الله » .. وشرعت المرأة تدعو له ودموعها تنهمر من عينيها .

وما لبث همـام قـائلاً للمـرأة : « إرجعـى إلى بيتـك وأطفالـك .. وسـنأتى بزوجـك الليلـة بمشـيئة الله .. سـيكون فى بيتـه الليلـة .. وسيخرج من بيته على المقـابر ... اطمئنـى .. إرجعـى إلى بيتـك .. » خرجت المرأة راضية كما لو أن زوجها عاد اليها سـليماً معـافى بـين سرور وفرح أطفالها .

لف الليل الوجود وتقدمت خطـاه .. وتحـرك « همـام » وشـقيقه «فـواز » وكـذلك شـقيقهما « يـونس » وبصـحبة أولاد عمـومتهم «زيدان» و « محروس » .

و « درغام » وباقى الجمع من رجـالهم وشـيعتهم .. وصـلوا إلى

المكان حيث الشجرة المعلق بها جسد « ابو العودين » فانزلوه وخلصوه من رباطه . ووجدوا « الجبلاوي ابو خطوة » قد فارق الحياة هو الآخر . سبقهم النزيف فقضى عليه .. حمل الرجال جثة الرجلين وهموا للانصراف عائدين .. قتلهم الغيظ وأذلهم الحنق !! .. هاهما رجلان من جلدتهما قتلا وبين ظهرانيهم .. الامر كان أهون على الخواجة من ذبح خروفين .. لا لا .. بل قتل كلبين إجربين عقورين !! ..

كان « الدكروري » غضوباً وحاداً ومندفعاً فقال متململاً : ابن الخنزير النجس !! .. لهذا الحد يفعل بالناس ؟ !..

أمسك « همام » بيده وضغط عليها فى قوة هامساً له : إهدأ .. إهدأ .. لا يقدم ولايؤخر الكلام .. ما تم قد تم .. لن يرجع الكلام من قتل .. اسكت يا « فواز » ... اسكت »

مشى الجمع عائداً إلى المنازل والدور .. خيم على نفوسهم صمت مذل .. والحزن جثم على قلوبهم وجفونهم جبال .. بيد أن «همام » شغله شاغل آخر .. شاغل أكبر من وقع هذه الحادثة ومن آثارها .. إنه الخلاص !! .. الخلاص من هذه الوهدة ... من هذا السقوط !! .. ياالله !! .. كيف ؟ .. وراحت الأفكار تتصارع وتصطك برأسه حتى وصلوا إلى المنازل والدور . سلموا جثة « الجبلاوى أبو خطوة » إلى أهله .. ووضعوا جثمان « أبو العودين » فى بيته .

تم تجهيز الجثتين للدفن .. وساروا بهما نحو المقابر رافعين المشاعل .. ليس هناك إلا رجال « همام » وشقيقه وأبناء عمومتهما .. حتى أهل وشيعة «جبلاوى ابو خطوة» تخلفوا عن جنازته إلا ثلاثة فقط منهم .

فرغوا من دفن الجثتين وعادوا أدراجهم إلى بيوتهم .. هجع الجميع إلى مخدعهم فناموا .. بيد أن هناك قلب لايهدأ ولا يقر له قرار وعين جرحها السهد والأرق .. ورأس تطن وتعج بصوت الأفكار المتصارعة كأمواج الأقيانوس الهادر .. وسؤال لايزل يلهبه ويطارده – كيف الخلاص ؟ .. النجاة !! ..

كان « همام » قد تعلم تعليم أولى وحفظ أجزاء من القرآن ويعرف القراءة والكتابة جيدا.. وبرع فى الحساب بحكم تجارته فى «الجمال» الواسعة فى كامل القطر المصري .. حتى كان يجلب الجمال والنوق من السودان إلى مصر يعاونه فى التجارة شقيقه « يونس » .. ولكن شقيقه « فواز » تفرغ لزراعة الأرض والحرث .. وشقيقهما الأصغر وهو « زين » طالبا بجامعة الأزهر .. وكان « همام » حريصا كل الحرص على أن يكمل شقيقه « زين » تعليمه فى الجامعة مخالفا فى ذلك رغبة شقيقه « فواز » الذى كان يريد أن يعاونه « زين » فى شئون الزراعة وتربية المواشى .. قدر « همام » العلم وقيمته .. وكان يحترم المتعلمين والعلماء .

لاح« لهمام» العلم والتعليم .. إرتاح لهـذا الخـاطر وكـأن وقـع كلمة العلم أشعت بالنور فى نفسـه وكيانـه .. وحـدث نفسـه قـائلاً : العلم نور .. والجهل ظلمة ! .. الجاهل ضعيف ! .. الجاهـل عـدو نفسه ! .. نعم العلم ! .. العلم ! .. النور والتنوير !! ..

كان « همام » يحب شقيقه الأصغر « زيـن » حبـاً عظيمـاً ويقـدره ويجله أيما إجلال ! .. ويناديه قائلاً : أسـتاذنا ومولانـا » !! .. ويـرد عليه « زين » : لا يا أخي ..أنت بمثابة أبى يا « همام » أنت من قام على تربيتى وتعليمى بعد وفاة والدى.. فى إعزاز وتقدير يجيبـه « همـام » : ولكنك انت أرفع وأكبر مقاماً .. أعزك الله بالعلم وفضـلك بالمكانـة والشرف . قال «همام » فى نفسه محتداً وهـو يحكـم قبضـته فى قـوة : لازم نعلم الأطفال .. أولاد « أبو العـودين » .. وغيـرهم يتنـوروا .. لازم يتسـلحوا بـالعلم والثقافـة .. لازم .. بـالعلم يكونـون رجـالاً أقوياء!! .. « كان » همام « رجلاً وجيهـاً طـويلاً ملفوفـاً .. قمحـاوى اللون .. منمق القسمات .. لـه عينـان واسـعتان سـوداوان آخـذتان للرائي .. وله ابتسامة حلوة قلما تفارقه .. ولا يعتريـه الغضـب أبـدا ..ولا يغضب إلا للأمور الجسام . ترى عينيه قد اتسعتا أكثـر ويبـدو كالنسر الجارح .. وله حـديث رائـع جـذاب يجـذب القلـوب إليـه لحلاوته وصدقه ولين كلامه .. عقد العزم والنيـة عـلى تنفيـذ فكـرة التعلم لأبناء بلده .. وسيبدأ تعليم الأطفال عـلى يـد شـقيقه « زيـن »

وصاحبه « الشيخ طه » ..

عندها سأل « سلمان » الشيخ بركات : وهل نفذ فكرته ؟ .. الشيخ بركات « وهو يبتسم متلألأ الوجه مشرقاً :

- نعم !! ..

وسأل سالم : « لا بد أن صعوبات واجهته ؟ ..

- بالطبع !! .. وصراعات رهيبة !! ..

- كيف واجه جدى هذه الصراعات ؟ ..

- اصبر !! .. اصبر !! .. وسينكشف كل شئ .. لا تتعجل .

ثم واصل « الشيخ بركات » روايته بأسلوبه الشائق والممتع والهادئ كالنهر الذى يتهادى إلى مصبه فى يسر وسهولة وسخاء .

# ( ٢ )

اغتاظ الخواجة
«حبيب» وأكل الحقد
قلبه علمه إن أولاد
«همام الدرايسي » جاءوا
بجثة القتيلين .. وتحرقت
نفسه البشعة وتذكر جرأة
أولاد « همام الدرايسي » حينما
قاسموه مياه المسقى الفاصل بين أرضهم وأرضه أزعجه كثيراً الأمر .. وبات يتحين الفرصة ويتربص بهم الدوائر لكى يقعوا فى شركه ومصيدته التى أعدها للصيد الثمين .. حاول مراراً لكنه أخفق ..

أولاد « الدرايسي » لهم عصبية كبيرة .. هم أصحاب أراضى وأطيان وتجارة جمال واسعة يديرها « همام » وليسوا فى حاجة إلى المال ليبيعوا له أرضهم المقابلة لأرضه .. احتار الخواجة .. امتعض .. ولكنه كان داهية يعرف بالضبط قدر كل رجل في أولاد

« عبدالعاطى » يحسب « لهمام » ألف حساب ودوماً يردد فى نفسه : « هذا الفلاح لا يخطئ أبداً .. أتمنى لو أنه من رجالى .. كان أغنانى عن الجرابيع المعتوهين حولى ..

« همام » ليس بالرجل السهل لا يمكن أحد أن يدرك قصده ومراميه .. إنه بعيد المدى.. ويأبى كبر نفسه إلا إن يعود قائلاً : «وعلى العموم هو فلاح ..وله حدوده .

وفى محاولاته للنيل من أولاد « الدرايسي » أوعز لصاحبة ابنته «ماجى » وتدعى « زهرة » وهى ابنة شيخ البلد إن تشغل فكر وبال « زين » طالب الازهر حتى يقع فى عشقها وتفشله فى دراسته .. ولكن ارتد السحر على الساحر فعشقت « زهرة » « زين » ولم يشعر هو بها بتاتاً ولم يعرها ثمة عاطفة مطلقاً .. كان يحتقرها ويحتقر ابيها رجل الخواجة .

ومن كثرة حديث « زهرة » عن عشيقها لصاحبتها « ماجى » حمل الأخيرة فضولها وشوقها لرؤية ذاك الفارس .. وعمدت « ماجى » على سؤالها

- وهل يحبك مثلما تحبينه أنت ؟ ..
- طبعاً .. يموت فى حبى !! .. يذوب صبابة !! ..

عادت « ماجى » فى خبث « لا .. دعينى أرى الأمر بعينى لكى أصدقك .. ارتبكت

« زهرة » وتغير لونها واستبدا بها القلق والحيرة ، ففطنت «ماجى» إلى أمرها وأردفت قائلة : اثبتى لى أنه يبادلك حبك !! ..

قالت «زهرة » فى تلعثم وارتباك

- كي كي كيف ؟ ..

– تقبلينه أو يقبلك !! .. أو قبلات متبادلة

- لا لا .. غير ممكن .. إنه شيخ أزهرى !! .. لا .. لا ..

حدجتها ( ماجى ) فى سخرية وقالت هازئة :

- أو ليس هو برجل ؟ .. أوليس عاشقاً ؟ ..

- نعم .. نعم .. هو رجل ! .. هو عاشق ! ..

إذن أيتها المغفلة سينسى أزهره .. وسينسى ساعتها نفسه وخالقه !! .. إن كان عاشقاً فعلاً على حد زعمك .. شعرت « زهرة » بمغزى فى حديث صاحبتها يرمى للتشكيك والتكذيب فانتفضت بكبرياء وزهو :

- نعم ! .. إنه يذوب هياما فى غرامى !!.

- أنا على يقين ولكن أرى بعينى واسمع بأذني .

- سأريك وأسمعك .. غداً عند البر الغربي ميعاد سفره إلى مصر المحروسة وسأقابله قبل أن يصل إلى المراكبى فى الطريق ..

قالت « ماجى » فى فرح إنه الحديث الصحيح .. هو ذلك الرأي الصائب .. وأنا سأختبئ بالقرب منكما خلف أشجار الورد البلدى عند حافة حديقتنا لأري وأسمع

وراحت « ماجى » فى خبث ومكر تحملها على الأقدام على ذلـك الموقف وهى تقول لها : – انا على يقين من حبه لـك .. أنـت رائعـة الحسن يا « زهرة » .. لا يوجد فى مغاغة كلها من فى جمالك .. عيونك الحلوين يذوب فيهم أى رجل .. حتى الراهب فى معبـده .. انتشـت «زهـرة » طربـاً لوقـع كلمـات صـاحبتها وغرهـا الأطـراء وأومـأت بالإيجاب موافقة وهى تقول فى ثقة :

- خلاص .. سأقابله فى الغد بعد الظهر مباشرة ..

- لكن يا « زهرة » تأتى لى أولاً قبل انتظاره ومقابلته .. وأمشى انا وانت من هنا .. اتفقنا ؟ ..

- اتفقنا ياعزيزتى « ماجى » .. اتفقنا

جاءت « زهرة » إلى صاحبتها ومشيتا سويا قبل اللقـاء المرتقـب بين الحبيبين وصلا إلى المكان المحدد .. فراحت« مـاجى » تختبـئ خلف أشجار الورد وتراقب عن كثب ما سـوف يحـدث .. ووقفـت «زهرة » ترنو حيث القادم من ناحية منازل البلد .

الوقت يمر و « ماجى » فى ترقـب وشـوق بيـد أن القلـق يسـاور «زهرة » وتتمنى لو لم يأت

« زين » .. إنها لا تدرى ردة فعل « زين » على تصـرفها تجاهـه .. استبد بها القلق وساورتها الظنون .. وهى على هذه الحال بدا « زين »

من بعيد .. وأخذ فى الاقتراب شيئاً فشيئاً .. طربوشه الأحمر وفوقه عمامة بيضاء .. والجبة الازهرية وتحتها القفطان والصدرية الرائعة!! .. يمسك بيده حقيبة جلدية .. ليس بالطويل الفارع الطول .. وليس هو بالسمين ولا النحيف .. وجهه أبيض مشرب بحمرة .. وعيناه واسعتان عسليتان .. يسير متهادياً فى سهولة دون تكلف .. توشى ملامحه بالرجولة والقوه والمروءة .

اقترب حتى كان على بعد خطوات من « زهرة » .. نادت عليه :

- ياشيخ « زين » .. يا شيخ زين ..

و« ماجى » تراقب من مخبأها وعيناها تلعقان الشاب من رأسه حتى اخمص قدميه .. ووقع إعجابه فى نفسها وحدثت فى نفسها : لك حق يا «زهرة » !! .. ما أروعه !! .. ما أجمله !! ..

نظر « زين » إلى صاحبة الصوت فى تثاقل وهو لا يزال ماشياً دون توقف ودون ثمة اهتمام وأجابها فى تجاهل وإنكار ..

- من أنت يا آنسة ؟ ..

- ألا تعرفنى ياشيخ زين ؟ .. أنا « زهرة »!! ..

- أشاح لها فى ضيق :

- لا أريد أن أعرفك .. إذهبى لشأنك ..

ملأت الفرحة قلب « ماجى » وكاد قلبها أن يقفز من بين ضلوعها .. لقد امتلأت إعجاباً بهذا الشاب .. وانتظرت لترى ردة فعل صاحبتها « زهرة » ..

صعقت كلماته « زهرة » فانهارت وتبعثرت وفى هستيريا جرت خلفه وجذبت يده وهى تنهال عليه سباباً وشتماً .

- انت لا تشعر ! .. أنت لا تحس ! .. أنت ..

قفزت « ماجى » نحوهما وصرخت فى « زهرة » وهى تقول وتردد:

- إخرسى !! .. إخرسى !! .. إياك إن تلفظي ثانية .. إياك ..

وجذبت زهرة من ذراعها ودفعتها بعيداً فى قوة ، ونظرت إلى «زين » وهى تخاطبه فى رقة بالغة ونعومة متناهية فى صوت مرتعش النبرات له وقع موسيقى حلو وعذب وفى لكنة افرنجية ..

– بردون مسيو « زين »!! .. بردون أستاذ « زين » .. انا آسفة !! .. بالغ أسفى يا أفندم !! .. بالغ أسفى يا أفندم !! ..

وقف « زين » مشدوها .. أخذته عيناها الرائعتان نحو عالمها الساحر .. وجهها البرونزى فى حمرة الورد وغمازتين على وجنتيها جعلتا وجهها كله ابتسامة .

وامتدت ظلال الابتسامة على الوجود من حول « زين » .. فغشى

السرور كل شئ .. مس قلبه ما يشبه النشوة فسرت فى كيانه ودمه وخالطت روحه .

أسلم نفسه للجمال فأسره .. وقف ناسكاً متبتلاً فى معبد الحسن يؤدى طقوس الولاء لعزة وسلطان الجمال .. خشع بصره .. سرت قشعريرة فى بدنه وكيانه .. حاول اصطياد الأحرف .. الكلمات .. لكنها تبخرت .. والمعانى تلاشت .. عاد ثانية للملمة رشده وجنانه دون جدوى .. تمتم .. غمغم بكلمات متقطعة غير مفهومة ومبهمة .. عرفت من حركة شفتيه المرتعشتين ما يقصده .. بادرته مشجعه على الحديث :

- افتكر إنها أول مرة لى تشرفنى بمقابلتك ؟ ..

قال فى صوت متهدج وخجل وهامسا :

- الشرف لنا ياهانم !! ..

وفى تودد وملاطفة بادرته :

- معقول بلدنا « مغاغة » فيها شباب بالروعة والحلاوة التى أراهما الآن ؟ !!

تشجع زين على أثر مغازلتها ، فردها لها :

- طبيعى ! .. لأن الجمال كله الذى اراه الان يقيم فيها !! .. وأكيد روعة حسنك ياهانم زينت كل شئ فى « مغاغة » !! ..

استحسنت منه عذب حديثه وحسن أدبه ورقة كلماته قائلة :

- وأيضا شاعر !! .. ياترى سنراك ثانية ؟

- أكيد يا هانم !! .. أكيد ..

وفارقا بعضهما بعد نظرة طويلة .. ومشى « زين » وهى لاتزال ترنوإليه وإلى مشيته وخطواته الواثقة المطمئنة ..

كانت « زهرة » غائبة عن المشهد الذى انتهى منذ لحظات .. فقد وقفت على بعد خطوات منهما معقودة اللسان تأكل الغيرة قلبها وكيانها .. ومن فرط الذل والإهانة اللتين لحقتا بها شرعت تبكى فى مرارة ووجع أخذت « ماجى » تهدئ من روعها ووضعت يدها على كتفها إلا أن « زهرة » رفعت يدها فى قوة وعنف وانتفضت كالأفعى وهى تردد :

ابتعدى عنى .. ابتعدى عنى .. أنا من الآن لست صاحبة لكِ.. لست صاحبة لكِ ..

ومالبثت تاركة « ماجى » وجرت مهرولة إلى منزلها .

رجعت « ماجى » تخطو وحيدة وقلبها يرقص فرحاً .. ويدق فى قوة لأول مرة له فى حياته .. أهذا هو أول الحب ؟ ! .. سألت نفسها « ماجى » .. قلبها يدق فى عنف فرحاً وطرباً ونشوة وخوفاً وظنوناً وترقباً لما هو آت فى مقبل الأيام .

( ٣ )

أرسل الخواجه
« حبيب » فى طلب
الشيخ « زيدون » فجاء
على الفور وقف الشيخ
إمام المسجد الكبير
والخواجة جالساً واضعاً ساق
على أخرى .. وخاطبه الخواجة : « ما
جزاء السارق فى شرعك ياشيخ زيدون ؟ صمت الشيخ برهة وأدرك مرام الخواجة وفطن لمبتغاه وأجابه » قطع اليد دون تردد ... وإن كانت السرقة من مال الحاكم .. تكون القتل دون رحمه ..

- من الحاكم ياشيخ « زيدون » ؟ ..

- سيادتك طبعاً .. معاليك يا بيه .

ثم يخر الشيخ زيدون مقبلا يد الخواجة ..

- تقصد ياشيخ جزاء « لابو العودين » الحرامى ومن حرضه على السرقة ؟ .

- طبعا يا بيه اقصد « ابو العودين » .. و « الجبالى ابو خطوة »

وعاد الخواجة سائلاً :

- وما رأيك فيمن حلوا وثاقهما وجابوهما من الغيط ؟ ..

- هؤلاء مجرمون !! .. فسقة !! .. ما أرادو إلا فتنة وفسادًا كبيرًا .. أنا والله ... والله .. وحياة سعادتك وهى عظمية .. أنا رفضت الصلاة على هؤلاء المجرمين ..

– ومن صلى على هؤلاء المجرمين ؟ .

– ولد حقير !! .. طالب فى جامعة الازهر .. اسمه « طه » ..

- من هو « طه » ؟ ..

- معاليك الولد « طه » ابن « زعفران » .. زعفران الحارس لأرض معاليك .. ابنه تعلم وتربى من خيرك يا بيه .. ناس سافلة .. ناس ناكرة للجميل والمعروف .. وتعض ايد سيدها يابيه !! ..

اسمعنى يا « شيخ زيدون»: .. ثم صمت برهة وهو يتفحص الشيخ وحدث نفسه : « أنت ألعن منهم يا ابن اللئيمة !! » .. اسمعنى ياشيخ زيدون: « خطبة الجمعة لابد أن تكون عن موضوع القتيلين أنت تعرف بالطبع ما ستقوله للناس ؟ ..

- أى نعم .. اطمئن يا بيه

أخرج الخواجة « حبيب » ورقة مالية كبيرة أعطاها للشيخ

زيدون: أمسك ياشيخ زيدون .. ليس بخسارة فيك !! ..

خطفها من يده فى سرعة البرق وهو يردد « ربنا يحفظك يا بيه » ربنا يحفظك .. يا ابو قلب طيب .. يا مؤمن .. ياربانى « وما لبث لاثماً أيدى الخواجة .. واستأذن ليخرج وهو يتراجع بظهرة نحو الباب .. اثناء تراجعه تعثرت قدماه بالكلب « ريكس » فوقع فوق الكلب انقض عليه فمزق وجهه وكتفه وصدره .. صرخ الشيخ : الحقنى يا سعادة البيه .. الحقنى .. وهو يتألم : آه ! .. آه .. عنيا .. وجهى .. وجهى اتقطع .. »

والخواجة يضحك ويقهقه فى سرور بالغ .. ثم نادى على الكلب « ريكس » .. ترك « ريكس » الشيخ وجرى نحو صاحبه وراح الشيخ زيدون بصوت غلب عليه الألم : اتركه يابيه .. اتركه .. أنا فداء سيدى « ريكس » !! ثم خرج يلملم جراحة ويمسح الدم عن عينيه حتى يمكنه رؤية الطريق أمامه .

الخواجة فى فرح بالغ ولريكس : برافو !! .. برافو « ريكس » .. إوعى الحيوان يكون آذى أسنانك .. أو يكون خربشك .. حبيبي «ريكس» .. ويربت على رأس الكلب فى رفق وحنان .. وما لبث أن أخذه فى حضنه وضمه فى قوة .

وهو يضم كلبه إليه يحادثه : أنت صاحبى الوحيد .. لا أثق إلا

بك .. كل هؤلاء الفلاحين الأجلاف سفلة !! .. هـم لا يجيـدون إلا عمل العبيد .. خدمة الأرض ! .. خدمة المواشى ! .. كله من أجلنـا نحن .. نحن أسيادهم » .. وما لبث أن جحظت عيناه وهـم واقفـا وسكن يتدلى ذراعاه بجانبه كأنه يتفتـت فى الزمـان والمكـان ، تـذكر «طه » ابن زعفران .. وتذكر « زين شقيق « همام » .. شهق فى قوة ثـم ندت على وجهة زفرة أسـى طويلـة وحـدث نفسـه قـائلاً « : هـؤلاء الأجلاف وصلوا للجامعة !! .. بدأ وا يتعلمونّ .. علم ! .. تعليم .. نور ! .. تباً !! .. لابد أن يظل جميع الفلاحين فى جهل مطبـق .. لابـد .. **لازم يفضلوا مواشي !!............ حمير »**.

أرسل على الفور فى طلب « زعفران » .. فأتى الرجل ... ووقـف أمام الخواجة . كان يرتعد وناكس الرأس فى خزي وانكسار ...سـأله الخواجة :« لك ابن فى الجامعة ..صحيح ؟........

– عبدك وخدامك يا بيه !..... « طه » ابني طالب في الأزهر ...

- صرخ الخواجة : لم أعرف بالأمر من قبل .
- إنه ليس سراً يا سعادة البيه الناس كلها تعرف ...
- كل الناس تعرف لكن أنا الوحيد المغفل ».......
- **العفو يا بيه ...« طه » مهما كان مثل ابنك ..**

**انفجر الخواجة غاضبا وانهال ضربا على الرجل وركلة فأطاح به**

أرضا

وهو يصرخ : « ابن من يا حيوان ؟ !... انه كلب مثلك !! .. ابـن من يا حيوان ؟

والرجل يردد فى ذل وانكسار :« لا العفو يا بيه .. العفو ... والله ما قصدت يا بيه !... والله ما قصدت إن .... »..

راح الخواجة يحذره ويتوعده :« اسمع يا ابن الكلب .. اختار لك واحدة من اثنين – إما ترك ابنك للجامعة وإما ترك عملـك فى أرضـى ... روح غور فى ألف داهية »...

خرج الرجل خزيان باكيـا وهـو بـين أمـرين كلاهمـا مـرّ وثقيـل كالجبال إن ترك عمله لدى الخواجة معناه ترك ابنه الجامعة .... مـن أين ينفق على ولده ؟ ... ولو اختـار العمـل عنـد الخواجـة – فلـماذا العمل وقد فقد معناه وخسر من يعمل ويكد لأجله .... ولـده الـذى انتظره طيلة حياته ورسم له صورة الشيخ الواعظ فى مخيلته أو المعلـم المرتدي للبذلة الأفرنكي والطربوش فوق رأسه كالتـاج المنيـر .... كل ما تمنـاه ومـا رسـمه سيضـيع هكـذا ... هكـذا بـين يقظـة عـين وغفلتها!!... ظل طوال عمره كالزارع الذى هيا أرضه وجهزها وأعد البذور الجيدة ثم تعهدها بالرى والاهتمام فكبر النبـات واينـع وأزهـر وعندها أصابه ما أصابه فأصبح أثرا بعد عين .... خطر له ذلك وبرق

كالوميض فتناثرت نفسه كشظايا الزجاج .... تناقلت خطاه فتعثـر فى همومه وأوجاعه وهرمه ... فزحزح قدمية الثقيلتين نحو داره.

أرسل « زعفران » إلى ابنه « طه » بالقاهرة مكتوبا تنـاول كـل مـا حدث بينه وبين الخواجة – وخـتم خطابـه بسـؤاله لابنـه : دبـرني يـا ولدي – ماذا أفعل ؟

أجاب « طه » على سـؤال والـده ولكـن بصـوت عـالى ومرتفـع ازعج صديقه « زين »

وصرخ : فى الجحيم العمل لدي الخنزير !! .. فى الحجيم يا ابـن الكلب انت وعملك ... لا ننكسر أبدا ... لا يـا أبـى ... أهـون علـى أحمل الجبال على كتفى ولا تنكسر أبداً ...........

جاء « زين » مسـرعاً إلـى صـاحبه مـن داخـل المنـزل وخطـف المكتوب من يد صديقه « طـه » وقـرأه ... وراح يربـت علـى كتـف صاحبه ثم أخذ الكتف الأخري وهـزه فى قـوة قـائلاً فى احتـداد « ولا يهمك يا صـاحبي ........ أرضـنا هـى أرض عمـي « زعفـران » ... يشتغل فى أرضنا .... ويلعن أبو الخنزير !!

اسمع يا « طه » ...اسمع يا اخويـا وصـاحبي : أنـا وانـت نقسـم اللقمة ونقسم الهدمة .... أنا وانت روح واحدة ولبست شخصين»...

كان « طه » رقيقاً وعاطفيا فجرت دموعـه تـأثرا مـن وقـع كـلام

«زين» فتاثر صاحبه فأخذه فى أحضانه وهو يربت على ظهره فى حفاوة وود.

رد « طه » : « تسلم لـى يـا « زيـن » .... تسـلم لـى يـا صـاحبي .........».

جلسا وصمتا برهة وأردف « زين » قائلاً:

- أنا حدثتك بأمر الفاتنة التى رأيتها فى بلدنا ؟..

ضحك « طه » وهو يقول :

- نعم يا سيدي ... ذكرت أمرهـا مـرتين . ..... لكـن السـيرة حلوة معاك !!!

- إوعي تكون ..

- لا أعرف .........لا أعرف .. لكـن مـن يومهـا ورؤياهـا لا تفارقني .....هي معي فى حركاتي وسكناتى ......... وحتى نومي .

- خذ حذرك يا « زين » ..... إنها إبنة الخواجة « حبيب » !!

- أعرف يا صاحبي .............. أعرف

ثم رنا « زين » وأذهله التفكير عن الوجود وهام هناك حيث عـالم «ماجي» وخياله ورؤاه وسحره .

ونظر « طه » إلى صاحبه مشفقا عليه وفى قلبه شيء من الخوف وكأن نبوءة أوحيت إليه من الغيب تظهر جراحاً ومآسي فى مقبل الأيام .. وشخص له صديق عمره فى طي الغيب مريضا لا شفاء له . وإذ بعينيه تفيضان بالدمع تأثراً وإشفاقاً ورحمة بصاحبه .......... مسح دموعه وهمس لنفسه وغمغم قائلاً :« اللهم اجعله خيراً » .

***

لم تكن « ماجي » أسعد حظا من الفلاحين فى علاقتها بأبيها ... كانت تفتقد إلى وده وحنانه وعطفه ... إلا أن قلب الرجل بمنأى عن هذه المفردات الغريبة لديه ...... هى مجرد بورتريه فى معرض فنان يتباهي بعبقريته فى إبداعه ... ربما يكون هناك شعور وتواصل وجدانى بين الفنان ومنتجه الإبداعى ... لكن الخواجة ... لا ....... إنه رجل بلا قلب ... بلا ضمير .. وبلا روح .. هو يحيا مجرد حياة !! .. وجود كوجود الجماد ... إنه صاحب نفس سوداء مظلمة لم ينفذ إليها شعاع من أشعة الرحمة ولم تهب عليها نسمة من نسمات الإحسان .

لكم اجتهدت ( ماجى ) أن تجعله أبا لها او حتى تصدق أو تتوهم لكن كل جهد ذهب سدي ... بقى الرجل المتسلط الذى يمتلك قطعة من الجمال فى بيته وفى قصرة .ليس فى دستوره كلمة عيب .. ولو تباع هذه القطعة التى يقتنيها ما تردد ثانية واحدة .

عاشت فى قصر أبيها مقهورة .. كأنها اسيرة لديه ... ربما أن العدو يرق قلبه لحال الأسير المغلوب على أمـره ... إلا إن « مـاجى » دون ذلك .

فتحت عينيها على الحياة دون أم لها ... بيد أنها لم تسطع أن تسـأل عن أمها ... ذات يوم ومنذ سنوات سألته عنها قابلها بثورة عارمة من الغضب والحنق والجنـون وسـيل مـن السـب والقـذف والطعـن فى شرفها ... ليته قال : أنها ماتت !! كان ذلـك أهـون عليهـا .. لم يقبـل ذلك ... ولم يقل أنها على قيد الحياة . ليس لها أهل إلا خالة تعـيش فى « باريس » ولم ترها سوى مرة واحـدة فى حياتهـا .. كانـت « مـاجى » طفلة صغيرة برفقة والدها فى إحدي زياراته لها . هـى المـرة الوحيـدة والأخيرة بعدها كانت مراسلات ومكاتبات بينهما دون لقـاء يجمعهـما سويا... وسألتها« ماجي » عن أمها ولم تجد منها إجابة شافية ... وبعد إلحاح من « ماجي » قالت خالتها : أسالى أباك عنها ... وأغلقت كل الأبواب بعدها فى وجـه هـذا السـؤال حتـى الخـدم فى قصـر والـدها اختلت بهم وسألتهم .. كانوا يهربون جميعا مرعوبين دون أن ينبس أي منهم ببنت شفة . أى عذاب تحيا معه هذه الفتاة الرقيقة الحسـناء ؟ .. كانت « ماجي » أتعس من الفلاحـين اذ عاشـت ولا تـزال مـع ذلـك الرجل – أبيها .

اودعت سر أمها بجانب معتم من نفسها ... إلا إن شيطان نفسـها

الآثم كان يعكر عليها صفوها ويحسدها على ومضات السرور العابرة فيأبى إلا أن ينغص عليها هـذا الصـفاء ويقلـب سـعادتها إلـى حـزن رهيـب .. فيـذكرها بـين الفينـة والأخـرى بأمهـا وسـرها الغـامض المجهول .

طاف بها ركب الليـالي وهـي بغرفتهـا وحيـدة وبصـرها متعلـق بنجوم الليل من خلال نافذة مطلة على حديقة القصر ... وقذفت بهـا الافكار فى أودية شتى فأوجعتها وأبكتها كثيرا .

رنا بصرها إلى القمر الراقد فوق النافذة فقفزت فى صفحة الفكـر صورة الشاب « زين » – طغت الصورة لديها على جمال القمر الساهر من بداية الليل . .. وضعت يدها على قلبها الـذى يـدق فى عنـف ... هدهد روحهـا شـيئ مـن السـرور اللحظـى .... وأخـذت تـدقق فى صورته الجاثمة فى خيالها ... هالها طلعته الوسيمة وملامـح الرجولـة الطاغية ... وحسن منطقة وأدبه ... وطنت برأسـها كلماتـه : الجـمال كله الذى أراه مقيماً بها !!! ...

ثم عبارته الأخرى : أكيد روعة حسنك يا هانم زينت كل شـئ فى « مغاغة» !! .

طربـت للوقـع الموسـيقى الـذى عاودهـا لوقـع كلماتـه ...... وحدثت نفسها .

– ترى هل أراك ثانية أيها الفارس ؟ !...

- قلت لى : أكيد يا هانم !..

- ترى أتوفى بوعدك الذى أكدته ؟.

وتذكرت صاحبتها « زهرة » ... انتابها شيئ من القلق ... فهى تدرك جيدا مدى آلام جرح الانثى فى أنوثتها وكسرة قلبها وخاطرها .... كانت « ماجى » فتاة رقيقة وناعمة وعاطفية وقد شعرت بألم صاحبتها وإن كانت الأخيرة هى وحدها المسئولة عما جرى ... فقد صورت ما لا وجود له ... وعاشت فيما نسجته من اكاذيب ... إلا أن كل ذلك لم يمنع لدى «ماجي » عطفة الرفق بصاحبتها والحنو عليها وعزمت فى قرارة نفسها أن ترسل لصاحبتها وتناقش الأمر معها وترضيها .

كل ما خطر على « ماجي » وصل بها إلى أذان الفجر ... فعانق الوجود ذلك اللحن المسلسل الرقراق ... وحملته إلى أذنيها نسمات الصيف البليلة ... كان الصوت الشجي الذى أتى فجأة من عالم علوى فبعث معه السمو الذى يعانق الروح ويطهرها ..

« الله أكبر ... الله أكبر »

أطرقت السمع للنداء ... فشفت نفسها هذه الروحانية الفطرية .

وإذ بها تردد : الله ! ... والله ما أجمل وأروع ذلك !!!

نطق بها لسانها مأخوذا بطغيان الشعور المنداح والمنساب لوقـع ذلك السمو ... نطقت الأذان ورددته خلف المـؤذن وهـى المخالفـة لعقيدة هذا الأذان .

كانت « ماجي » تحب الإسلام وشعائره وطـالما قالـت إنـه الـدين الوحيد الذى حرر الإنسان وأرسي العدل والانصاف بين جميع البشر.

ثم أغلقت نافذتها وأسلمت نفسها للنوم ... لم تسـتطع ....حـال بينهما الأرق والفكر وانتابها من جديد .

* * *

دار أولاد « الدرايســي » اجتمــع « همــام » وشــقيقه « فــواز » و«يونس» وأولاد « الجبالى ابوخطوة » وأبناء عمومتهم وآخرون من أبناء مغاغة .

وشرع « همام » متحدثا بعد أن هيأ النفوس لسماعه وأعـدها لكـى تتشوق لحديثة : أسـوأ شـئ فى الـدنيا الجهـل ... الجهـل ظـلام ... والعلم نور ... الجهل يهدم ويخرب .. والعلم يرفع ويعمر .. ما حـل بالرجلين « ابو العودين » و « الجبالى » بسبب الجهل .. لأن ضـعفنا نتيجة الجهل ... الجاهل ضعيف بطبيعته لأنـه لا يـدرى ولا يعـى .. لايدرى كيف يواجه ما يحيط به ..... لانه يفتقر لثمة قوة فى نفسـه ... أو لأن بجهله لا يمكنه معرفة القوة فى ذاته . .... حجاب الجهل يخفى

عنه كل شئ ... كل ما فى نفسه أولا ..وما لدى عـدوه ثانيـة ... ولـو تكشف عنه حجاب الجهل لعلم أن عدوه أضعف ما يكون .

ثم صمت « همام » برهة وتفحص وجوه الجمع ليرى أثـر حديثـه لديهم .. الجميع أطرق السـمع مصـغين فى اهـتمام بـالغ وكـأن علـى روؤسهم الطير ... أكمل حديثه بسؤاله لهم :« ما قولكم فيما قلته ؟».

أجاب رجل يدعى « المنشاوي » وهو الشهير « بابو العريـف » : كلام زين .... لكن الموضوع يعنى ... يعنى .....

رجل أخر : يعني ولا يعنى .. اسكت يا ولد يـا « ابـو العريـف » ....

انت دايما تطلع فى كل حاجة القطط الفاطسة .... اسكت .....

ثالث: كيف نعمل نحن من أجل شفانا من الجهل الاسود ؟..

رباع : اتحتاج لفكاكه هـى يـا « فيلسـوف » ... لا أعـرف ... لـما نسأل ابو الرجال ... طيب قل لنا يا ابو الرجال – كيف ؟...

- طبعا التعليم حكر على أولاد البهوات والبشوات والأجانب لكن أولاد الأرض ... أولاد الطين المصرى والنيل الغلابة حرام ....

حرام عليهم التعليم إلا الفلتة .. ولا يوجد إلا معهد أزهرى يتـيم فى المنيا ... وحتى لو الطفل ختم القران أهله يا ولداه ما يقدروا علـى

مصاريف سفره وإقامته هنا ... لو حتى أصلا اطمأنوا عليه فى الغربة والبلاد البعيدة . سنبدأ بتعليم أولادنا جميعا هناك ... نعلمهم بنفسنا نحن ... المكان موجود عندنا .. الدار القديمة بتضم خمس غرف واسعة .... كل غرفة لحوالى ثلاثين طفل ... وجميع اللازم سأقوم به من نظافة المكان وتجهيزه .... وأخى « زين » وصاحبه « الشيخ طه» ومعهما « مخيمر » وإن شاء الله سأدفع راتب مدرس رابع ... والمشرف على الموضوع من تختارونه أنتم .

الجميع فى صوت واحد : أنت .. أنت طبعا يا أبو الرجال !!!.

- وأنتم شركاء معى .

اندفع «فواز » كعادته وأقسم قائلاً : وأقسم بالله ثلاثًا .. أنا عن نفسي تبرعت بمحصول فدانين لمصروفات المشروع ...فدانين يصبحوا وقف على موضوع تعليم اطفالنا .. يا سلام يا أولاد لما أولادنا يتعلموا ويبقوا مثقفين ومحترمين مثل الافنديات .

المنشاوي : يبقوا مثقفين مثلى بالضبط .

رجل : طبعا مثلك ... يا فيلسوف الحمير .. ياترعة المفهوميه!!.

يضحك الجميع !!.

استطرد « همام » قائلاً : من يوم الغد سنعد كشوف تسجيل أسماء أطفالنا وسنبدأ بأولاد المرحوم « ابو العودين »

رجل : لازالوا صغارا ... ما عدا ولد – هو « عويس » ...

همام : سنبدأ مع الأطفال من سن ثلاث سنوات ...

الرجل : يبقى اثنين من أولاد « ابو العودين » ... ليس « عويس » فقط ...

اتفق الجميع فيما بينهم على ذلـك ... وأرسـل « همـام » لشـقيقه «زين » مكتوبا شرح الأمر له ... وأوصاه بأن يحضر معه هو وصديقيه « طه » و « مخيمر » أعدادًا من المصاحف والكتب اللازمة ... وأعطي « عثمان » لرسوله إلى شقيقه بعض المال اللازم لما يحتاجه .

كان « زين » وصديقاه « الشيخ طه » و « مخيمر » على وشك إتمام امتحانات نهاية العام وقد أبدوا استعدادا وترحيبـا هـائلاً بـأمر تعلـيم الأطفال وجلسوا يتناولون الأمر .

قال « الشيخ طه » فى فرح بـالغ سـائلا: تـرى مـن صـاحب هـذه الفكرة الفريدة العبقرية ؟..

أجابه « مخيمر » : أكيد وليس غيره أبو الرجال ..

« طه » بالطبع ليس غيره ... ربنا يحفظه لنـا ويبـارك فيـه ... ربنـا يبارك لنا في كل آل « عبد العاطي »

وتحدث « زين » قائلاُ : المهم يا اخوانا نريد أن نختار الكتب ...

نوعية الموضوعات التى يمكن للأطفال استيعابها .... ولو إن هناك مادة صعبة – ممكن نجتهد سويا ونلخصها ونبسطها وننزل بها إلى عقل الطفل .

طه : جميل يا « زين » أفندي ... يا ليت البداية والأهم تكون بكتاب الله عز وجل .... ومعه السيرة النبوية .. تحكي بطريقة سهلة وميسورة مثلما يستمع الأطفال حكايات الأم والجدة ..

زين : رائع يا شيخ طه ! ... ولا بد أن نركز على قصص التراث العربي وأبطال العصر الجاهلي والفتح الاسلامي .

مخيمر : لازم نزرع فى الأولاد روح العزة والإباء والشعور بالكرامة ! ... فتخلق وتتكون الشخصية القوية .. نعم الشخصية الفاعلة ... صاحبة العزيمة والإرادة !...

زين : الله ! الله ! .... هى هى ... العزيمة ... الإرادة !... روح التحدي .. المستنير صاحبها بالفكر والتنوير والثقافة ... الله !! كنت أحلم بشئ كهذا طيلة عمرى ... ولكن شكراً لمن برز بهذه الفكرة وأخرجها للوجود ... شكراً للعبقرى « همام الدرايسي » وأطرق الجمع هنيهة طالت قليلا ... وأردف الشيخ «طه» قائلا : إلا يا اخوانا تفتكروا المشروع ... لن يلاقي معارضة من أحد ؟.

نظر « مخيمر » فى غرابة وسائلا فى إنكار : من سيعارض ؟..

طـه : البشـوات !! البهـوات !! ... والخواجـة !.. كلهـم لـن يستريحوا لتعليم أولاد الفلاحين ... أكيد .

نظر « زين » لصاحبه «طه » : إنه أمـر مسـلم بـه .. ويجـب علينـا وعلى كل أهل « مغاغة » الصمود والاصرار والتحدي .. هذه الفكرة لابد أن يبذل فى سبيلها كل غـالى ... فكـرة تهـون فى تحقيـق مبتغاهـا الارواح ويرخص لها كل عزيـز ... يـا اخوانـا إن التعلـيم هـو بدايـة التثقيف ، والتثقيف هو بداية تكوين الـوعي ... والـوعي هـو البـاب المفتوح على مصراعيه نحو التحرر ... نحـو احتـرام الإنسـان لذاتـه كإنسان ... ومن الـوعي لـدينا نحـن بـل واجـب علينـا أن نـدرك أن الطريق شاق ومضن ومفروش بالشوك والأذى .. وربما بالدم ؟!..

أجاب « مخيمر » فى حماسة واحتداد : نعم بالـدم !! ... إنـه طريـق الحرية يـا رجـل ... وطريـق الحريـة معـروف .... لم يسـلك طريـق الحرية أحد دون مصاب ... ليكن !.. ليكن !..

واتفقوا جميعا على شراء كل ما يلزم تعليم الأطفال قبـل عـودتهم إلى الصعيد .... عقب نهاية الامتحانات

❊ ❊ ❊

بعد أن خطب « الشيخ زيدون » خطبة الجمعه واشـاد بالخواجـة ورحمته وكرمه وسباقه لفعل البر والخيـر ، شـتم خصـومه وحقـرهم

وكفرهم جميعا .

مر يومان على ذلك ... شعر بعدها بحرارة جسده وسخونه تسري فى كيانه الزمته تلك الحمي الفراش ... أصاب الرجل « داء الكلب » وهو لا يدرى ... مصل المرض كان منعدما آنذاك ... وليس هناك وعى بحقيقة المرض ... والطب والطبيب مصطلحات على ألسنة الناس دون وجود لها فى الواقع ... كان الطب الشعبي وبعض أمور الشعوذة وطقوس السحرة فقط ... طهروا جروح الرجل بمحلول الملح ... وتركوه بعد ذلك ... حتى ساءت حالته وتمكن الفيروس من دمه وجسده .

بلغت الحمي بالرجل منتهاها حتى دخل فى هذيان واختلط عليه الامر فراح يتمتم بكلمات وفى صوت كأنه آت من العالم الأخر : ما لى؟..

كان مالى والغلابة ؟ .. كان مالى ؟...جلس ابنه الشيخ «عبد القادر » بجانبه وجلست أمه عند رأس زوجها .

خاطبه ابنه سائلاً : أتريد شيئا يا أبى ؟ ..أتريد شيئا ؟ .

يجيبه متلعثما : هاها ... خـ خـ و.....

دون شئ أخر ... عاد ابنه الكرة سائلاً : أتقول شيئا يا أبى ؟...

أتقول شيئا ؟....

شخص بصر الرجل نحو سقف الدار ومأخوذا نحو النهاية .

الزوجة عند رأسه بللت خرقة من القماش بالية من جرة المياه بجانبها ووضعتها على جبهته .... يفيق الرجل لثانية أو أقل ثم يغمغم : خـ خـ و و ا جـ ... الـ الـ كـ كـ لـ ب .....

وابنه مستغربا لا يعرف كنه ما يقصده أبوه ولا بمقدوره الإمساك بكلماته ... الرجل يشخت ... يحشرج .... ثم تحشرج صوته وغرغر .. هزه ابنه فى عنف مرددا : أبى ... أبى .. رد على .. انطق الشهادة ... انطق يا أبى .

ولكن ... أين أبوه منه ؟ !.... لم ينبس ببنت شفة .

## ( ٤ )

ظل الرجل يعالج
سكرات المـوت حتـى
فاضت روحه ... وبقـى
جثـة لا حـراك فيهـا ....
باردة دون حرارة حياة .

انــه مشــهد النهايــة للشــيخ
«زيدون » إمام وخطيـب المسـجد الكبيـر
«بمغاغة » .

نشأ «عبد القادر» فى جلباب أبيه لم يـرض مطلقـا أن يـنفض هـذا التراب عنه ... ترعرع على حب الخواجة وكراهيـة أهـل بلـده دأب أبيه .

فلما كان الخواجة ضامنا لطاعته وولائه ساعده على خلافة أبيه فى إمامة المسجد والإقامة على شئونه ، وأجزل له العطاء واشتراه عبـداً فبقى فى زمرة عبيده يضرع لسانه ويلهج صـباح مسـاء بعظمـة وحمـد الخواجة .

سمع الشيخ « عبد القادر » بمشروع التعليم فحث خطاه مهـرولا إلى سيده الخواجة ، دخل عليه قصره فركع وقبـل الايـدي والاقـدام

يردد لسانه بمطلع ما يحمله من أخبار : أسمعت ؟ .. أسمعت يا سيدنا البيه ؟

- تحدث يا ولد ..... ما الخطب ؟...

- مشروع التعليم !! ... تعليم الأطفال !....

- أى مشروع ذلك ؟....

- مشروع تعليم الأولاد الصغار فى الدار القديمة !!!...

- أى دار ؟...

- دار قديمة لأولاد « همام الدرايسي » ... « همام » وشقيقه فواز.

- متى سيبدأ المشروع ؟...

- على نهاية الأسبوع ، لما « زين » وصاحبه « طه » يخلصوا امتحانات الجامعة ...

- هل الأمر صحيح يا « عبد القادر » ؟

- والله العظيم .. وحياتك يا سيدنا وهى عندى أعظم – الكلام صحيح

- خلاص يا « عبد القادر » .... امش انت ... روح ....

جلس الخواجة وحيدا حملق وجحظت عيناه أسفل حاجبيه الكثيفتين الثقيلتين فبدا كالشيطان ... نفخ فى قوة كان اتون تضطرم النيران بجوفه فتتصاعد إلى سقفه لفحات اللهيب والحريق .

حدث نفسه سائلا : أهم مجددا ؟ .. أهم مجددا ؟– أولاد « الدرايسي » ؟

سأخرج عن سكوتي عنكم هذه المرة ...

راح يعض أنياب الغيظ متململا وعاد سائلا :« ترى – أى شئ » افعله معكم يا أولاد « الدرايسي » ؟ ... لم يبق إلا الفلاحون لكى يتعلموا – بعدها لن يبقى لنا شيئ ... لن نبقى هنا .. علينا أن نرحل عن هذه الارض ... نعم .. لو أن هؤلاء حملوا مشاعل العلم والثقافة والتنوير .... مستحيل !... مستحيل أن يحدث ». وصرخ باعلى عقيرته وقد غيب الغضب عقله : « مستحيل !.. مستحيل مهما كلفنى .. أولاد الكلب !.........».

تردد صراخه فى جنبات القصر فتناهي الصوت إلى خدام القصر .. جاءوا مسرعين إلى سيدهم وسأله احدهم : فى حاجة يا سيدنا البيه؟ ... فى حاجة ؟....

وقف محملقا مأخوذا ومشدوها كأن شخصا لا يراه سواه يقف متحديا له على وشك نزاله .. أعماه الغضب وقتله الحنق فلم يسمع

سؤال خادمه ..... عاد الصوت مناديا وسائلا : يا بيه ... يا بيـه ... فى حاجة سيادتك ؟

إنتبه أخيرا لمصدر الصوت .... وحدج خادمه بنظرة تطاير منهـا الشرر .

وصرخ : حاجة ؟... أى حاجة يا حيوان ؟ ... لا شئ ... غـوروا إلى الجحيم .

اندفع خدمه مهرولين للخارج وتركوه ...

نادى على السايس ليحضر له جواده « برق » ... جهزه لـه وجمـع رجاله ...

امتطي صهوة جواده وأطلق له العنان وخلفـه الرجـال يلهثـون فى أثره .

مرت الأيام فى طريقها غيـر ملتفتـه ... وعـاد « زيـن » وصـاحباه «الشيخ طه » « مخيمر » ... واشتروا معهم من قاهرة المعز كل ما يلزم مشروع تعليم الأطفـال مـن المصـاحف وكتـب المطالعـة ومبـادئ التعليم الأولى وكانت فرحة الأهالى عارمة .

وعلى قدم وساق هب الجميع لتجهيـز الـدار القديمـة وتنظيفهـا وترتيبها فأصـبحت جـاهزة لاسـتقبال الأطفـال ..و سـجل « زيـن » كشوف بأسماء الأطفـال وتـوزيعهم حسـبا لأعمارهـم علـى فصـول

مختلفة.

أبدى المعلمون استعدادا ونشاطا فوق العادة « زيـن » ورفاقـه .. الكل سعيد ... فرحان ... وأصوات الأطفال الملائكية البريئـة تـردد القران خلف المعلمين .

وكان فخر المعلمين بالأطفـال النجبـاء لا يوصـف ... الأطفـال يحفظون ويتعلمون بسرعة عجيبة وخارقة للعادة .. العقـول الصـغيرة تضئ وتلمع وتتوهج بنور الدرس والعلم وحفظ القـران . ومـن بـين الأطفال الذين اظهروا براعة فائقة وملفتة للانتباه هما « عـويس » ابـن ابو العودين وشقيقه « سعد » .

ولا غرو فإن الأرض الخصبة الجدباء والتـى هـى فى شـوق إلـى المياه ... مـا إن يصـيبها الغيـث حتـى تهتـز وتربـو وتسـخو بـالنماء والعطاء والبركة .. كذلك أولئك الأطفال فقد ضرب الجهـل وخـيم على بيـوتهم وبيـوت آبـائهم وأجـداهم فـاقفرت العقـول كالأوديـة الجرداء العارية والتى خاصمتها المياه ... ولما انبثق النور لهذه العقول بدت تتوهج وتشع ... هاهم أولاد الفلاحين ... أولاد العوز والفاقـة والحرمان !!!... كل شئ سار سهلا ميسورا نحو التقـدم والازدهـار ... وما انفكت الألسنة تلهج بالدعاء والتوفيق لأولاد « الدرايسي » .

باع « فواز » محصول الفدانين وأعطي ثمنهما لشقيقه « همام » وهو

القائم على المشروع كمؤسس ومدير مالي له .

جاء الكثير من الأهالى ليلتقوا أطفالهم بالمدرسة الجديدة ... ضاقت الدار القديمة على الاعداد الكبيرة للاطفال ... فقرروا أخذ دار أخرى وفتحها وتم ذلك بالفعل .

هذا المشهد لم ينأ عن الخواجة وعبيده وسدنته وباتوا ممتلئين بالغيظ والحقد والحسد .. ومكروا وتربصوا الدوائر لصرف الناس عن ذلك الأمر بيد إن جميع كيدهم ارتد إلى نحورهم وباءت كل محاولاتهم بالبوار والخسران .

نازعت نفس الخواجة كثيرا هواجس التصادم المباشر بينه وبين أولاد « الدرايسي » ... ولكنه ليس بالرجل الغر ضعيف العقل ... كان داهية لا ينزلق إلى ما يشقيه او يتعبه .. فهو يعرف أن أولاد «الدرايسي» أصحاب عصبية كبيرة فى « مغاغة » وباقى القري حولها ، وكل من حولهم رجال من لحمهم ودمهم ... أما من فى جانبه هو – فهم أجراء ومرتزقة ..نبات متسلق لا تربطه بهم عصبة او دم أو مشاعر..والرجل يدرك ذلك تماما ..

الخواجة صاحب نفوذ وجاه وسلطة يستمدها من افندينا حاكم البلاد ( الخديوي) هذه السلطة هى فقط المفقودة لدى أولاد «الدرايسي » دونها هم يتفوقون على الخواجة أما فى وجود تلك

السلطه فى يده فتتعادل الكفتان أو أنها تميل قليلا مربوحة لصالح الخواجة .

إن المقارنة بينه وبين أولاد « الدرايسي » كالمقارنة بين الفيل والأسد لأى منهما القوة على اختلاف خطورتها وجسامتها إلا أنهما ينأيان عن الصراع والتصادم المباشر ... ربما يقضى الأسد على الفيل او العكس ولكن الحتمية الوجودية تجعل التصادم غير وارد الوقوع ... بيد أنه غير مستحيل الحدوث .

على أى حال فان سحائب كثيفة وقاتمة تلوح فى الافق وهى حبلى بنذر التصادم وبلوغ الصراع لمنتهاه ... إلا إن ذلك فى طى الغيب .

❊ ❊ ❊

تم الوصال ولقاء الاحبة بين « زين » و « ماجي » ابنه الخواجة – عدة مرات عند الساقية المهجورة ... و عند استراحة أبيها على النيل السعيد ... قد نهلا معا من كأس الحب والهيام المترعة بالهناء والشوق ولوعة انتظار اللقاء بعد اللقاء .. ذلك الانتظار الذى تعد وتحسب اوقاته ليس بالثانية ولكن بمئات الوحدات من أجزاء الثانية.

ها هما الليلة على موعد جديد عند الربوة الخضراء داخل بستان النخيل بموقع ساحر قرب البر الغربى للنيل السعيد بالجانب الشمالى من « مغاغة » . الليلة قمرية بديعة ورائعة تعانق أجواءها النسمات

الساحرة .

جاء « زين » قبيل الموعد مساقا بلهفة الشوق إلى المكان قفز فوق الربوة العالية .... رنا إلى الطريق حيث القادم ... نظر فى ترقب محدقا بين جذوع النخيل المتمايل .. القمر بدرا يطل من علا ه فوق النخيل وتنفذ أشعته التى تعكس ظلال الجريد والنخيل على الربوة الخضراء حيث جلس « زين» فى انتظار محبوبته ... لاح له شبح قادم من بعيد .. علق بصره بالقادم وهو يقترب شيئا فشيئا ... كانا رجلين يتحدثان وما لبثا أن تجاوزاه ومضيا لحالهما ... امتعض .. استبد به القلق .. ساورته الظنون .. اعتملت الأفكار فى عقله ... اختلطت الظنون والريب بفكره المضطرب وتقاذفت بنفسه فيما بينها فأصبحت داخله كالأمواج الكاسرة بالأقيانوس الهادر .

وبعد أمد سحيق ... بعد ملايين من وحدات زمن انتظار العشاق لاح له تحت ضي القمر شبح على ما يبدو لامرأة وبصحبتها أخرى ... أخذت تقترب حتى دخلت بستان النخيل تتبعها صاحبتها .. ملأته الفرحة واختلج قلبه بالسرور وكاد قلبه يقفز من بين ضلوعه ... سرت قشعريرة فى بدنه وكيانه ... نزل بسرعة من فوق الربوة وهرول لمقابلتها.. أمسك بيدها قائلا: المكان كله نور من حولنا سيدتى الفاتنة !!!..

تنهدت وأجابت فى خفة ظل : لا ... إنه نور القمر !!!..

- أنت أجمل !.. ونورك أروع من القمر !!!...

تنهدت ثانية وكذلك خادمتها « وصيفة » وأردفت « وصيفة » قائلة : « والله كلامك يا سيدنا الأفندي يمس القلب .. انا عارفة الكلام الحلو بتفننوا كيف ؟!!!.

وضحك الجميع لوقع كلمات « وصيفة ».

عيناها الرائعتان تلمعان تحت أشعة القمر وتعلقان بعينى « زين » ..جلسا سو يا على العشب الحبيب المتعب من وله الحبيبن ومن التنهيد فولولت فيه العهود والوعود .... وجلست « وصيفة » على بعد خطوات منهما .

سالها « زين » تأخرتى كثيرا عن الموعد ؟...

- لا ..... فى الميعاد بالضبط .. ولا ثانية .

همس هو قائلا :« لا ينفع مع ا لعاشق ضبط ولا ربط ... والانتظار قاتل للعاشق ... ولا يجدي الزمن مع من عاش فى الخيال برفقة الحبيب ».

ناجته بصوت متهدج النبرات مرتعشا :

- أنا بجانبك فى الحقيقة ... أنا بجوارك ..

- حتى لو بقيتى حتى الصباح فلن يغنيني عن ثانية واحدة

أقضيها معك .

- ... تعودت على الخيال الذى تملكينه على وحدك .. أنت الآن ملكة الاثنين . الواقع والخيال ... وفى بعدك خيالى فيكى يسيطر على واقعي ويأخذنى من وجودي ....!!!.

تنهدت وارتمست بسمة جميلة على ثغرها أظهرت أسنانها البيض اللامعة كالفضه النقية وهمست :« وأنت مثل ذلك بالنسبة لى ..... انت تلازمنى كأنفاسي .. كنبض قلبى ... أنت الحياة نفسها يا «زين»..!.

- انت تذكريني ببطلات وملوك التاريخ ليس لك شبيه او نظير فى عالمي .

أنت « بلقيس » !!... « قطر الندي » !!.. « ميرامار » !! .. «كليوباترا » « نفرتارى » .. انت كل هؤلاء .

وهى مأخوذة بكلامه اللطيف : لا ... لا .. تحديدا – من فى هؤلاء؟..

- احتار فى التحديد ... أنت كل هؤلاء !!..

- الله !... لا يمكننى وصف رقتك ورقة كلامك ... كل شئ عندك لطيف ... وممتع ورائع !.

مر الزمن سريعا ، فالزمن دوما غير عادل مع العشاق .. يكويهم بناره فى الانتظار والبعد ... وما أسرعه وأنشطه فى إنهاء اللقاء وقطع الوصال بين المحبين !

غاب القمر ولف الظلام الوجود وهما لاهيان . كانت « وصيفة» قد نامت ثم استيقظت فجأة فلم تر شيئا من الظلام الدامس .. انزعجت وضربت بيدها صدرها وهى تنادي : ست ! ...يا ست!...انتبهت « ماجي » للصوت وادركت الظلام من حولها فانتفضت مذعورة .

- نعم يا « وصيفة ».

- بنا نروح يا ست بسرعة .. الليل سرقنا !...

همت واقفة .. امسك « زين » بيدها واجتازا سويا بستان النخيل تتبعهما « وصيفة » حتى وصلا إلى الطريق .. أرادت « ماجي » أن يتأخر « زين » قليلا بعدهما إلا أنه رفض بشدة وأصر على السير معهما فالليل تقدمت خطاه وليس هو بالرجل الذى يترك النساء فى الليل ناهيك عن أقرب النساء لقلبه .

سارا يزحزحان الخطا فى بطء وتثاقل ... تمنيا لو تطول الطريق او يتوقف الزمن المعادى دوما للأحبة ... وفجأة يمزق سكون الليل اذان الفجر وإذ بها كعادتها تهلل وتردد « خلف المؤذن »: « الله !!...

الله ... » ما أجمل هذا النداء الساحر !!... انه يعانق روحـي ... يـدب فى كياني ... الله على الإسلام انتبه « زين » لقولها وملأ نفسه بالسـرور قائلا : « ما دمت هكذا ... فالإسلام وإهله يرحبون بك » ... تنهـدت فى أسى :« ليس بيدي ... الأمر أكبر من إرادتـى يـا « زيـن » .. أردف هو قائلا : « لا .........لا يا « ماجي » لا يوجـد أكبـر مـن الخـالق لا اعتبار لكائن ما يكون على وجه الأرض بجانب الخالق وحقـه علـى خلقه فى عبادته هو وحده .... لا يملك أحد جنتـه ولا يملـك عذابـه ...لا عذر فى ذلك ...... لا عذر ».

اندفعت فى خفه ومرددة « ليس لى عذر ... ليس لى عذر ».

- نعم ليس لك عذر .

صمتت هى فقد راعها الامر ودار فى رأسـها ثـم أومـات موافقـة لحديث « زين » واخذت تدعو :« اهدنى يا رب ..... وخذ بيدي إلى طريقك وقوينى ......».

- الإسـلام « يـا مـاجي » ....الإسـلام هـو طريـق النجـاة ...............»!!..

اقتربا كثيرا من القصر وهى تدعوه بكلماتها الرقيقة قائلة « يا تـرى متى أراك ثانية ؟ ....... أتتأخر علينا .؟...

- لو كان بيـدى افضـل معـاك طـول العمـر لا أفارقـك ثانيـة

واحدة.

- طيب ........ متى أراك ؟....

- بعد يومين أو ثلاثة !... تنهدت قائلة : وفى نفس الزمان والمكان ؟.

- سأبلغك مع « وصيفة ».

وافترقا كل منهما نحو غايته ......

* * *

قام الخواجة « بمطاردة آباء الأولاد الذين انتظموا فى مشروع التعليم فى ارزاقهم .... وحرمهم من العمل فى مزارعه وأرضه واستبدلهم جميعا بآخرين من عمال التراحيل القادمين من بلدان الغرب البعيدة .

استقبلت أراضى أولاد « الدرايسي » أكبر عدد منهم ولكن هناك اعداد كبيرة تم تشريدهم وحيل بينهم ولقمة العيش وسد الرمق انعكس ذلك على حضور الأطفال فبداوا يتغيبون عن الدرس وتخلف الكثير من الأطفال والذين رغب آباؤهم فى العمل لدى الخواجة مضطرين .

أثار الامر حفيظة « فواز » والذى أتى إلى شقيقه « همام» والغيظ

قد أكل قلبه وفى تبرم وسخط سأل شقيقه .

- وبعدها مع ابن الخنزير .. الخواجة الكلب ؟.
- اهدأ يا « فواز » ... اهدأ !!.
- ما عادت لى طاقة على التحمل ......صبرى نفد ...
- بالراحة ........فيما ترغب فعله ؟.
- أريد اولع فى الخواجة .
- لا .......لا .... لا... ذلك يجر علينا ويلات وا هوال ..
- ليكن ما يكون ..
- وبعد خراب ديارنا ويتم أطفالنا .. ما الفائدة ؟.
- طيب يا اخوي دبرني .. كيف العمل ؟.
- نحاربه بنفس طرقه وحيله واسلحته ...
- كيف ؟...

أطرق « همام » مليا وعاد سائلا أخيه :

- لما الخواجة طرد الفلاحين من أرضه ، من عوضه عنهم ؟..
- عمال التراحيل ، من بلاد الجبل الغربي .

- من صاحب النفوذ والتاثير فى نواحي الجبل الغربي ؟.

- لا أدرى بالضبط ... لا أدرى ..

- « الشيخ خضر الغرباوى » .. هو وأسرته لـه مكانتـه الدينيـة والأدبية فى نفـوس كـل اهـل الغـرب بـل فى كـل بلـدان « العـدوة » و«مغاغة »و « طنبدى » و « شـم »...ولـه مفعـول السـحر فى نفـوس الجميع..

وفى تبرم وضيق قال « فواز »:

- والله ما أنا فاهم أى حاجة .

- واحدة بواحدة معى انا افهمك كل شـئ ..سـأذهب لمقابلـة «الشيخ خضر الغرباوى » وأحدثه فى أمر الخواجة وأفعاله وتصـرفاته مع الفلاحين ومحاربته لتعليم الأطفال وأطلب منـه التـدخل فى الأمـر ومخاطبة الخواجة لكى يمتنع عن مطاردة الناس فى أرزاقهم .

- انفجر فواز غضبا وسخطا وهازئا :

- أى وساطة مع الكلب الخواجة ؟.

- اصبر يا اخوي ... اصبر وتفهم الامـور لـو وافـق الخواجـة الشـيخ فبهـا ونعمـه ... وإن لم يفعـل فسيصـطدم بالشـيخ .. ولكـن المتوقع غير ذلك .

- ترى ما هو المتوقع ؟.

- ان يواجه الخواجة الشيخ بكبرياء وغطرسة وتعالى .. يستاء الشيخ منه وينقلب عليه ... عندها اتدخل انا واطلب من الشيخ منع الفلاحين وعمال تراحيل الجبل الغربى من العمل عند الخواجة .

- بدا « فواز» فاغرا فاه ومندهشا من حديث شقيقه.. فقد راعته الفكرة وحكمة شقيقه .. فتهلل وجهه و طفق قائلا :

- يااا على عقلك !!.. خلاص فهمتك يا اخوي .. فهمتك يا ابو الرجال .

- ومتى ستقابل الشيخ ؟

- إن شاء الله فى يوم الغد ...

كان « همام » رجل ساحر الحديث يمتلك قلب محدثه فى سرعة خاطفة تساعده رقة طباعه وحلمه ووقاره وسرعة بديهته وحضوره وبعد نظره .

ذهب لمقابلة « الشيخ خضر الغرباوى » وبدأ الثناء عليه وعلى أسرته ومكانتهما الدينية لدى الناس واشاد بفضلهما ونصرتهما لدين الله فى مشارق الأرض ومغاربها وفى جهاده للدين والوطن .. فأسر الشيخ بحسن منطقه وعذب حديثه وسلاسته فملك قلبه وعقله .

**وشرع « همام » ليحدثه فى المشروع التعليمي والغرض منه واهمية التعليم .**

ونشر الوعى فى الناس .. والشيخ ملىء بالاعجاب من أفكاره وطريف إبداعها .. وختم حديثه مع الشيخ بموقف الخواجة وظلمه وعناده وعن مساومته بين قطع أرزاق الفلاحين أو انقطاع أطفالهم عن التعليم والدرس وكيف أن الخواجة أصبح عقبه كؤود أمام تعليم الناس .

انفعل الشيخ واستاء كثيرا وبدا الغضب على قسمات وجهه .. وطلب « همام » منه التدخل فى الأمر لدى الخواجة وحثه على عدم محاربه الناس فوافقه الشيخ مرحبا ووعده بمقابلة الخواجة والتحدث معه . استأذن « همام » وترك الشيخ وانصرف .

* * *

خطر على ذهن « همام » وهو فى الغرب صديق قديم لوالده هو «شيخ العرب النجداوى » فعزم على التوجه لزيارته ، واخذ طريقه نحو « نجع العرب » هناك فى حضن الجبل الغربي .

كان الوقت عصرا ويسير « همام » ممتطيا حصانه وأثناء سيره أرخى اذنيه للمغنى البدوى وصوته الرائع وهو يقود قافلة البعير :

**ياحادى العير وقف اسالك ديار حبيبى قريبة ولا بعدت**

سايرليالى طوال نجومها ما تبينـت سايروبنار الشوق نفسى اتحرقت

تنـــــزف بـــــالجوى جـــــروح والــــــــروح اتعـــــــــذبت

ياحــادى العيــر وقــف اســالك ديــار حبيبــى قريبـة ولا بعـدت

عاشق ريم ياخـال مـاتقولى بـدر قلبى أسير هواه ولدياركم حضـر

عساكم ترحموه ياخال من بعد السفر

ياحادى العير وقف اسألك

انتشى « همام » طربا وهو يردد خلفـه وقـد اسـتولت عـلى نفسـه حلاوة المعانى وطلاوتها ..

وسار يرددها فى سرور بالغ حتى وصل إلى « نجع العرب » .

تهلل وجه « الشيخ النجداوى » بالبشر والفرحة لرؤيتـه « همـام » وطفق مرحبا ومحتفيا بابن صديقة القديم : يامراحب .. يامراحب .. ولد سبع الرجال .. ولد الرجل الهمام « سليم الدرايسي ».. من يـوم موت حبيبى « سليم » ماخطيت ناحية المشرق .. يا اهلا ..» وشـرع الرجل آخذا فى حضنه « همام » ومقبلا جهته ورأسـه وقـائلا : «كـأنى رأيت» سليم الدرايسي« اليوم أهلا ياريحة الحبايـب » .. ثـم نـادى على الرجال والشباب وامرهم بذبح ونحر الذبائح ثلاثة أيام متواصلة

وفى الليل اللهو والسمر وليالى الملاح تكريما وحفاوة بالضيف العزيز .

ونادى « الشيخ النجداوى » بأعلى عقيرته :

- يا « معبد » ... ياولد يا « معبد » ...

جاء الشاب مسرعا إليه :

- نعم يا جدى ... نعم !.

- جاوبنى يا ولد عرس من فى القبيلة هاد الموسم ؟.

- عرس « تميم » ابن عمنا على ميسون بنت النضير :

. تقام الأفراح من هادا الليلة بعد العشاء .. تقام الأفراح والليالى الملاح ويشاركنا افراحنا الغالى ابن الغالى ... حل علينا بوجه الفرح والسعد تمام كيف دأب المرحوم أبوه فى حال حياته ..

وذبحت الذبائح وأقيمت الولائم .. وأكل القوم وشربوا .. واستأذن « همام » الشيخ فى الانصراف والرحيل بيد أنه غضب وتأثر بشدة وصرخ مقسما : والله العظيم ثلاثة لاترحل من نجعنا إلا بعد ثلاثة ايام تامة ولو نطقت بحرف واحد لخليهم شهر كامل .. عيب ياولدى .. كنا بنضايف عند المرحوم أبوك بالشهر .. وحلت فى سنة علينا مصيبة ، هجرنا النجع وقعدنا عندكم فى دياركم عام كامل ..

حول بتمامه وكماله .. والله كنا وسط اهلنا فى « مغاغة » .. ونعم الكرم ونعم الرجال انتم .

- لكن أهلى لايعرفون بأننى عندك ياعمى الشيخ ...

نادى الشيخ على الشباب ، وجاءوا اليه ، خاطبهم قائلا :

- يذهب اثنان منكما الحين إلى « مغاغة » تبلغوا « فواز» ولد «سليم الدرايسي » . بأن شقيقه « همام » ضيف عندى فى نجع العرب» ..

موجها حديثة إلى « همام » : خلاص ياولد حبيبى .. اطمأننت .. حجتك انتهت خلاص .

لم يجد « همام » بدا فمكث مع « الشيخ النجداوى » .

وبعد العشاء وبين الدور المشيدة بالطين وبعضها بالأحجار ومسقوفة بالبوص والجريد وهناك بعض الخيام المنصوبة .. اقيم السامر .. وتجمع الشباب والكهول و الشيوخ والنسوة والصبايا وحتى العجائز .. وتبارى شعراء البادية فيما بينهم وجاءت المغنية فائقة الحسن والجمال تتمايل وهى تغنى بلهجة رائعة وبصوت شجى مرتعش النبرات .

**آه ......... آه .......... آه يا بديوى .**

**حبك حراق فى قلبى .**

**آه .......... آه ......... آه يا بديوى .**

**وتردد من خلفها الصبايا ... آخرتها معاك يا بديوى ..**

**والحيرة وياك على عينى .**

**جــرتنى وراك يا بديـــوى .**

**آه .......... آه .......... آه يا بديوى .**

**عطشانه والميه فى يدك .**

**واحلف بالغمزة على خدك .**

**تروينى وتعدل عن صدك .**

**وترحم عذابى يا بديوى .. ..**

**وتردد من خلفها الصبايا ... آخرتها معاك يا بديوى ..**

**آه .......... آه .......... آه يا بديوى .**

أخذ جمالها « همام » وهى تتمايل فى غنائها . لها وشـم أخضـر فى زرقة مرسوم على ذقنها ينطق سـحرا عـلى وجهها القمـرى البـدرى المستدير .. وعيناها واسعتان لهمـا حـور جميـل وفتـان .. رموشـها سابلة تكـاد تغطـى مـن طولهـا عينيهـا .. هيفـاء وملتفـة فى اسـتواء

واعتدال وقامة عالية .. لها أنف أخنس صغير.. وفم لولا أسنانها ناصعة البياض لما ظهر من دقته .. وأخذت تنظر هى أيضا لعثمان .. وعند ختام أغنيتها ألقت بمنديلها عليه فأمسكه بيده .. مال عليه «الشيخ النجداوى » هامسا له : إنها « ناجية بنت اخوى صفوان » الله يرحمه .. ربيتها بعد موت ابوها .. كانت طفلة صغيرة .. لكن بختها مال .. وما اتعدل زهرها ! ..

– كيف ياعم « نجداوى » ؟. ..

– مات خطيبها قبل دخلتهما فاصبحت من ساعتها كيف البيت الوقف .. ولا شاب راضى يتقدم ويطلب يدها .. بقت فأل شؤم ..سبحانك يارب ناظرها كيف البدر فى اكتماله .. هى « ناجية » زينة الصبايا الملاح !.

وعلى الفور ودون تردد والفرحة تملا قلب وكيان « همام » أنا بطلب ايدها منك ياعم « نجداوى » ولى الشرف بنسبكم .. طبعا بعد رأيها وموافقتكم انتم ...

أجابه الشيخ النجداوى : ياولدى أنا رجل كبير حنكنى الدهر .. رأيها أنا عرفته . أمارته المنديل الطائر وحط عليك .. ورأيى فيك يا ولدى انك رجل ابن سيد الرجال .. أنت أفضل مننا ياولدى شرفا وأصلا .. أنت من عشيرة زين ولك عزوة وناس ورجال .. مبارك عليك ولدى .

ثم وقف الشيخ مناديا وسائلا : يا أهل النجع .. يا أهل قبيلتــي .. هادا الضيف ابن صديقي الغالي المرحوم « الدرايسي » ايـش رايكـم فى الرجل ؟

الجميع فى صوت واحد : « رجل كل الزين ..»! ...

عاد الشيخ النجداوى : هو طلب يد « ناجية بنت اخوى صفوان» وأنا قبلت طلب الرجل ..

الجميع فى صوت واحد : مبارك عليه وعلينا » ..

وشرع الشيخ قائلا : نقرأ مع بعضنا الفاتحة ..

إلا إن « همام » استوقفه قائلا : « لا .. لا ياعم الشيخ نجداوى ... بالطبع أنا شاكر لك كرمك لى لكـن اسـمح لى فالاصـول تقتضـي أن يحضر معى هنا كل أهلى وعائلتى وتطلب منى أعلى مهر تزوجت بـه بنت فى نواحيكم .. انا اتقل بنتكم بالجواهر .. بالألماس ياعم الشيخ نجداوى ...

استحسن منه رجال وشـباب القبيلـة حسـن منطقـة وحسـن أدبـه وفرحوا به وكذا الشيخ أكبره فى نظره .. ورفع مقامة لديـه وهـز الرجـل رأسه موافقا وأردف قائلا : يكفيك يا ولدى .. لكن أريد اقولك شئ أنا عرفت أبوك الله يرحمه زين .. وكأنى أراه الحين فيك أنـت .. صـحيح : من خلف مامات .. نفس الشبه بينكما ونفس الرجولة والطباع ..

وجلس « الشيخ النجداوى » يتجاذب أطراف الحديث مع «همام» وشباب ورجال قبيلته حتى ساعات متأخرة من الليل .. هجع الجميع إلى النوم ...وأطبق السكون على النجع .. ولكن «همام» لم يغمض له جفن .. بات مسهدا مجروح الجفن .. إنه فى عجب من تحولات القدر .. وكأن ما حدث لشخص غيره من شدة غرابته .. وعاد شريط الأحداث للوراء حسبا لترتيبه فى ذهنه وكما وقعت فعلا.

عائدا من مقابلته للشيخ «خضر الغرباوى » تذكر صديق أبيه وجاء لزيارته هكذا دون ترتيب سابق أو إعداد .. بعدها ودون سوابق أو مقدمات وجد نفسه مرتبطًا بفتاة هى الآن فى حكم خطيبته .. هو الرجل المتزوج وله اثنان من الأولاد .. إلا أنه أحب الفتاة وللوهلة الأولى .. من أول نظرة .. نظرة خطفت قلبه وروحه .. أى قدرة أو قوة او سلطان لسهم هذه النظرة .. هكذا سلبته قلبه مثلما يطلقون عليه فى عالم الرياضة – الضربة القاضية .. أطلقت عيناها الحوراتان قوى خفية كقوى السحر أو القوى المغنا طيسية .. أيا ما كانت ! .

ولكن – أيستطيع أطباء الغرام وحكام الفلسفة وأكابر العشق أن يفسروا لنا هذه الحالة .. الضربة القاضية للقلب وخطفه فى شرك الغرام من الوهلة الأولى ؟...

ربما عند الصوفيين والروحانيين إجابه ما . أو عند أصحاب

الرأى أو النظرية القائلة بالتواصل والإرسالات الروحية بمجرد تلاقى العيون وتخاطبها بلغة غير لغة الكلام والتحدث وغير اللغة فوق المعتادة وهى الشائعة عبر الأشعار المنثورة .. وليست بلغة إشارة .

لاتستطيع أي من تلك النظريات أو الاتجاهات أن تسعف «همام» بجواب شاف يريحه من هذه الحيرة وتلك الدهشة .

إن ما يريحه ويركن اليه فى دعة واطمئنان .. اعتبار أن الحب قدر .. قدر وكفى .. سواء نزل بالقلوب فى ثانية أو فى أيام أو شهور أو سنون .. إنه قد وقع بالقلوب وانتهى الأمر .. وبما أن الحب قدر فلا يلزم التحدث والبحث فى فلسفته .. إن عقولنا ليست مخولة بمناقشة كنه الأقدار .

انقضت أيام الضيافة بنجع العرب ، وعد « عثمان » الشيخ النجداوى بالعودة ثانية ومعه أهله بعد اسبوع على الأكثر ، وسلم على رجال وشباب القبيلة وقبل رأس الشيخ النجداوى وانصرف راحلا عن النجع .

* * *

قامت « زهرة » ابنه شيخ البلد من نومها مهمومة ومكسورة على انكسارها لوقع تلك الرؤية التى رأتها فى منامها .. رأت حفل عرس

كبير بقصر الخواجة .. وجمع من البشوات والبكوات وعلية القـوم .. زاحمت ودفعت عنها الأجساد المتلاصـقة حتـى وصـلت إلى منصـة العروسين وإذ بهما

« زين » وصاحبتها « ماجى » ابنة الخواجة .

أكل قلبها الغيظ وعضـت نواجزهـا وبـدت كـالنمرة الهائجـة ، وجرت مسرعه من دار أبيها كالمجنونة فى طريقها إلى « ام الدنف » .

« ام الدنف » امرأة ندابة تستأجر فى المـآتم .. وهـى امـراة أريبـة ومحنكة وتنتمى فى الأصل إلى الغجر ولها درايـة واسـعه بكـل شـئ خصوصا السحرة والمشعوذين .

دخلت عليها « زهرة » فتعانقتا وقلبت « زهرة » يدها ورأسها ثـم جلست القرفصاء على حصير يفترش الأرض فى مواجهتها .. نظـرت المراة لها نظرة متفحصة طويلة وبادرتهـا فى حنـو مصـطنع : سـلامة الجميل من الحزن .. عينيـك الحلـوين دبلانـين والحـزن يـا ولـداه ساكنهم !....

ندت زفـرة أسـى طويلـة عـلى وجـه « زهـرة » وتنهـدت فى قـوة وبصـوت جرحـه الأسـى والضـنى : موجوعـة يـا خالـة .. وقلبـى مكسور!...

ضـربت المـراة صـدرها فى ارتيـاع : عينـى عليكـى يـا بنيتـى ..

سلامتك .. فداك خالتك « أم الدنف » .. روحى يا بنيتى .. فضفضى لخالتك .. وراحت « زهرة » تقص لها ماحدث بينها وبين « زين » وبنت الخواجة ، وكيف إن ابنة الخواجة خطفت منها حبيبها على حد زعمها ... وختمت حد يثها بتلك الرؤية المفزعة لها والتى رأتها فى منامها ، وجاءت على أثرها من نومها تجرى إلى « أم الدنف » وظلت « أم الدنف » منصته لها فى اهتمام بالغ ولم تنفك محولة بصرها عنها حتى بعد أن فرغت من حديثها .. وكانت تغمز بعينها عند النقاط الهامة فى الحكاية وكأنها قارىء جيد يضع خطوطا حمراء تحت العناوين المهمة .

فرغت « زهرة » من حديثها ، صمتت ونظرت متطلعة إلى وجه المرأة لكى تقرأ مدى تأثرها واهتمامها بأمرها .. وفى سرعه خاطفة أدركت المراة ما تصبو اليه الفتاة فراحت ضاربة صدرها بيدها فى قوة وتصنع بالغين قائلة : بنت اللئيمة !.. خطفت منك الجدع وكسرت قلبك .. وبتقول إنها صاحبتك .. لا .. هى عدوة بنت عدو .

وما لبثت أن صمتت فى خبث بعد أن القت بهذه العبارة لتحرك الفتاة .

نظرت إليها « زهرة » لما طالت فترة الوجوم والصمت .. تململت فى قلق بالغ .. أدركت المراة منها ذلك دون أن تتفوه بكلمة .. استبد القلق والتوتر « بزهرة » وقالت فى عصبية وتبرم : دبرينى

يالخاله ؟ ..

والمرأة تتدلل فى تثاقل عجيب دون أن تنبس ببنت شفه .. إلا أنها نظرت إلى « زهرة » فى سخرية واستنكار ولكن دون رد منها .. عادت « زهرة » فى يأس وقنوط واستسلام وفى نبرة مشوبة باللوم والعتاب : ألم تسمعى ياخالة ؟ .. قلت لك : دبرينى .. دبرينى ياخالة...

وفى لهجة احتداد واستنكار غاضبة قالت المراة : ومابيدى افعله؟

بخيبتك القوية والهبل ضيعتى حبيبك من يدك .. وبعد خراب مالطه جايه تقولى : دبرينى ياخالة .. ما يقدر على القدرة إلا رب القدرة !! .. ما بيدى شئ .

راحت « زهرة » والدموع تملا عينيها وتناجيها فى ضراعة وتوسل وفى صوت غالبته العبرات : ارحمينى ياخالة ! أرجوك .. أنا بموت .. انا فى عرضك يا خالة .. ارجوك ..

وصلت المرأة الماكرة إلى ما تريد وهيأت الفريسة للخطة المباغتة والانقضاض عليها وملأ السرور قلبها وقالت وهى تغمز بعينها وفى ثقة وغرور : أنا تربية غجر والعب بالبيضة والحجر .. صحيح الموضوع صعب .. وأنتِ صعبتيه بغباوتك ويحتاج منى مجهود كبير لكن .. قاطعتها

« زهرة » فى رعونة بالغة : نعم ... نعم .... نعم .... ولكن ..........

– كلة بثمنه ......... الموضوع يحتاج منك لتضحية كبيرة قوى .... كيف يا خالة ؟........

– خمسة عشرة جنيه ... خمسة عشرة .... عدا ونقدا ....

لكن ياخالتى المبلغ يساوى نصف ثمن فدان طين .. هو ثمن نصف فدان طين ..........

– والله يا حلوة بنت شيخ البلد تساوى الدنيا كلها .... انت زينة الصبايا .. عشرة جنيه للشيخ « المرجوشى » وخمسة جنيه لى انا .. اندفعت « زهرة » سائلة : من « الشيخ المرجوشى » ؟...

– يا على « الشيخ المرجوشى » ؟.. عالم كبير قوى قوى ... بيحسب النجم ويضرب المندل .. ويفتح الكوتشينة ... رجل علوى ومكشوف له الحجاب من رب الأرباب .. ويرى فى كشفه المخبى والمستور وعمله اسود يتوضع فى القبر والدور. وفى مدى جمعتين تنفك العقد ووصلك للحبيب يصبح كل الزين .. سال لعاب(زهرة) وهدهد حديث المرأة روحها وأثلج صدرها وما لبثت موافقة على طلب المرأه وأومأت بالإيجاب معلنة رضاها على طلب (أم الدنف).

أيقنت (أم الدنف) بنجاح خطتها وإمساك هدفها والوصول إليه

فقالت فى اشتراط وتحكم: لكن(الشيخ المرجوشى) بيأخذ حقه عدا و نقدا مقدما قبل أي حاجة.. وانا رايحه عنده بعد يومين.. د برى نفسك، وجهزى المطلوب منك.. بعدها هو سيقوم بعمل شغله.. سيعمل له عمل يجعله يقوم من نومه يهتف باسمك.. زهرة !.. زهرة!.. مثل المجنون.

أصحيح ما تقولينه يا خالة؟..

- عيب يا بنيتى ..عمل(الشيخ المرجوشى) ما ينزل الأرض أبدا.. اطمأنت (زهرة) وكادت الفرحة أن تقفز من عينيها وهى تقول: لهذه الدرجة؟

وأكثر!.. انا جربت الشيخ مرات كثيرة.. سأحكى لكى العجب عنه!! إلحقينى يا خالة وحياتك.

كان شاب غلبان بيحب بنت من الأغنياء وهى تحبه لكن أهلها رفضوه واهانوا الشاب وعايروه بفقره يا ولداه .. وفى يوم رجل طيب دله على « الشيخ المرجوشى ».. وحضر الشاب عنده.. بعد جمعتين وثلاث أو أربع أيام بعدها..وفى ليلة من الليالى البنت خبطت على عم الشاب، وراحت قالت له سأموت نفسي لو ما تم زواجى من ابن اخوك .

« زهرة » فى دهشه وانبهار وفرحة عارمة : معقول يا خالة ؟! .

- عيب يا بنيتى.. فى مرة بنت كانت أسوأ أخواتها وكانت قبيحة الوجه، وكل أخواتها تزوجوا ماعدا هي.. وحياتك ـ بعد العمل من الشيخ ـ العرسان والخطاب بقوا بالطابور على دار ابوها .. وابوها بقى يحكم ويتحكم ـ وتزوجت من ابن شيخ بلد، كانت أحسن من زيجات أخواتها كلهم.. والله يا بنيتى.. « الشيخ المرجوشى » يقرأ الكف ويشوف الطالع.. ويفتح المندل.. ويحسب النجم.. وغيره وغيره.. كثير قوى..« الشيخ المرجوشى » ـ بحر علم.

« زهرة » فى ثقه وحماسة: أنا سأحضر المبلغ لك بكره يا خاله.. خلاص.

إوعى تنسى تحضرى معاك قطعة من ملابس حبيبك ، واسم أمه تكتبيه فى ورقة..وأريد إن أعرف اسم أمك أنت..

- اسم أمى أنا ياخالة « نعيمة » !-

خلاص اكتبى اسمك واسم أمك،وتحت منه اسم حبيبك واسم أمه- ثم صمتت « زهرة » برهة كأنها تحتار فى أمر ما--لاحظت المرأة أمرها فنظرت لها وسائلة:فى شىء حيرك ؟:

- نعم ياخاله ؟:

- خير! فى أي حاجه؟--

- لوما استطعت الوصول لأى حاجه بخصوص « زين » أيكفى

اسم امه؟

- لا لكنه ممكن لو الامر صعب عليك،احضرى لى حفنة تـراب من تحت قدمه--

- إزاى يعنى؟:

- تاخدي بالك منه زين وتراقبيه ، وعينك عليه وسكته وطريقه . وتبصرى مكان قدمه واثرها فى الأرض، وبعد ما يعدى ويمشى بعيـد قوي،تروحى بسرعه تاخذى حفنة تراب من مكان أثار قدمه -

خلاص فهمتى يا بنتى؟--

- خلاص ياخالة - فهمت - فهمت..

واستأذنت« زهرة » مـن « أم الـدنف » وتركتهـا وانصـرفت بعـد وعدها أنها ستجئ إليها فى يوم الغـد، وكانـت فى حالـه مـن السـرور والانشراح تغاير تماما الحاله التى أتت بها إلى المرأة.

* * *

اوقف « الشيخ خضر الغرباوى » حصانه أمام البوابـة الخارجيـة لقصر الخواجة ونزل معاونه مـن عـلى جـواده هـو الآخـر وأمسـك الجوادين.

جرى البواب إلى الشيخ فى سرعة البرق وفتح البوابة وسـلم عـلى

الشيخ مقبلا يده وهو يقول: يا مرحبا يا سيدنا الشيخ.. مرحبا يا مولانا.. زارنا النبي.. نورت « مغاغة » .. اتفضلوا.

أدخل معاونه الخيل.. وجرى البواب للداخل ليخبر الخواجة بقدوم الضيف الكبير.. تأخر لبرهة طالت قليلا ثم خرج قائلا للشيخ: تفضلا البيه فى انتظارك يا سيدنا الشيخ وأشار له على الطريق للدخول حيث يجلس الخواجة.

وأخذ البواب من المعاون زمامى الحصانين واتجه بهما نحو اسطبل الخيل.

دخل الشيخ ودلف خلفه معاونه وقرأ الشيخ السلام ثم رد الخواجه قائلا: سعيدة مبارك!!..

ووقف الخواجة فى تثاقل وصافح بأطراف أنامله فى استعلاء وكبر ولم يصافح معاون الشيخ.. جلس الشيخ واضعا ساق على ساق فى مواجهة الخواجة وجلس معاونه بجانبه.. ونظر الشيخ إلى الخواجه من اسفله إلى اعلاه فى ازدراء واستهجان ثم ما لبث قائلا: أرى من الاصلح الدخول فى الموضوع مباشرة من غير حتى تعارف بيننا وبدون مقدمات وبادر الخواجة قائلا: أنت تحارب تعليم الناس هنا وتساوم الناس على أرزاقها مقابل حجب أبنائهم عن التعليم.. نظر الخواجه مصطنعا التغابى والانكار قائلا: تعليم!!.. أى

تعليم؟.. هل يوجد تعليم هنا؟.

- نعم بالجهد الذاتى لأولاد « الدرايسي ».. وللناس هنا..

ضحك الخواجة فى هيستريا كالمسطول وساخرا: من أولاد «الدرايسي »؟!.. وهل يوجد ناس هنا؟.

عندها خرج الشيخ عن حلمه ووقاره مواجها سفه وحماقة الخواجه وصرخ قائلا: هم أناس محترمون رغما عنك وعن أبيك..أولاد « الدرايسي ».. هم أسيادك.. أنت لا حق لك هنا.. أنت مجرد لقيط لا جذور لك ولا أصول لك ولتذهب حيث كان يعيش أجدادك هناك.. انت مجرد مرض!.. مرض لعين !.. يجب القضاء عليه.

ثم هم واقفا للانصراف وأشاح بيده له فى هزء واحتقار وغادر تاركا الخواجه ويتبعه معاونه.

ذل عقل الخواجه الذكى وتعثر بعجرفة كبريائه.. وطاش فهمه.. لم يتحمل وقع ذكر اسم

« الدرايسي » وذلك للحقد والضغينة والكره الملئ بهما قلبه.. تعاليه أعماه عن حقيقة يوقن بها تمام اليقين وهى - مكانة وأهمية الشيخ « خضر الغرباوى ».. ويدرك أن فى ذلك خسارة كبيره له.. لكن عناده يأبى عليه أن يتصرف بمظهر المسلمِّ والمذعن.

سأل الشيخ عن دار « همـام » ورأى انـه مـن الواجـب أن يقابلـه تقديرا لوعده لـه.. وبالفعـل وصـل هـو ومعاونـه وخـرج « همـام » وإخوته وجميع أهل الحى لاستقبال الضـيف الكبيـر.. جميـع النـاس جاءوا يسلمون على الرجل تباركا به..وعم السرور والفـرح واحتفـى أولاد «الدرايسـي » بالشـيخ وانزلـوه منزلـة الملـوك والأمـراء مـن انفسهم.. ذبحوا وأقاموا الولائم له ولجميع الفقراء والأقربين. وبعد الأكل والشرب، شـرع الشـيخ « خضـر الغربـاوى » بالحـديث عـن الخواجه ومقابلته السيئة.

ووصفه له بالسفيه الأحمق.. اسـتأذن «همـام » للحـديث فرحـب الشيخ مسرورا وأذن له قائلا: اتفضل يا «همام » يـا ابنـى، أنـا بحبـك وحديثك بيقع فى القلب بسرعة.

قال «همام»: والله يا عم الشيخ – الخواجة بيستعين بالفلاحين من نواحيكم بدلا عن هنا. قطب الشيخ حاجبيه وسائلا: من أي بلد مـن الغروب يأتون؟

– من العطف، بنى وركان، القايات، برطباط.. هز الشـيخ رأسـه ثم قال فى ثقه بالغة : سأتحدث إلى مشايخ وعمد هـذه الـبلاد كلهـا، وسنمنع جميع الفلاحين من العمل فى أرض الخواجة سنحاصره ابـن الكلب. ثم صمت الشيخ برهة وقال مشجعا: على العمـوم بـارك الله فيكم.. وامضوا على بركة الله.. لا شئ أولى بالتعليم من حفـظ كتـاب

الله عـز وجـل.. وربنـا يـوفقكم واى شـئ تحتاجونـه أنـا مسـتعد.. وسأتبرع لله عز وجل وللمشروع بمبلـغ سـنوى « ثلاثـون جنيـه ».. وسأرسله سنويا مع صاحبى واشار على معاونه.

شكره الجميع ودعوا له بالبركة. تشـعب الحـديث بـين الشـيخ والجميع وأهل الدار وكـل عائلـة «عبـدالعاطى» لسـاعات طويلـة، والناس فى سعادة وسرور بالغين بوجود الشيخ بينهم ثم أدرك الشيخ أن مهام كثيره فى انتظاره فستأذن وانصرف، وسـلم عـلى الحاضـرين يتبعه معاونه.

* * *

جلسا « همام» و « فواز » ومعهما شقيقهما « زين »..نظر « فواز » إلى شقيقه

« همام » فى احترام واكبار بالغين قائلا:كما حسبتها بالضبط يا ابو الرجال ..تسلم !..كما قلت بالضـبط : اتوقـع الصـدام بـين الشـيخ والخواجة .. تم بالفعل الصدام ..وقد كسبنا الشـيخ فى صـفنا نحـن ..بالإضافة إلى مكسبنا للغروب كله .

عقب « زين » قائلا: رأى أبو الرجـال دومـا صـائب.. إنـه بعيـد الأمد والرؤية !!..

ذهب « فواز» بدفة الحـديث إلى جهـة أخـرى ونظـر إلى « همـام»

بابتسامه ذات مغزى ثم صمت.

أدرك «همام » ما وراء ابتسامة أخيه فالتفت بعيدا خجلا منه .. بيد إن « فواز» طارده بكلماته قائلا :سيدى يا سيدى ناس فرحانة وناس مثل حالتنا لهم العمشانة .

رد « همام» سائلا وفى إنكار:وهى زوجتك عمشة يا « فواز» ؟:

اشاح « فواز » فى تمرد وضيق قائلا :ياللا بقى ..أهو حظ والسلام..عمشه ولا عرجاة : والله ماتفرق..هو خفير بنبوت والسلام .. وضحك الجميع .

وسأل « زين » شقيقه « فواز » وياترى ما سبب فرحة الناس ؟

ابتسم « فواز » لشقيقه « همام » وهو يقول له : رد عليه يا «همام» الجواب عندك ..

« همام » فى خجل : لا أعرف .. قول له أنت يا « فواز » براحتك.

استغرب « زين » الأمر ونظر إليهما وسألهما : ما الأمر ؟ ..

أجاب « الدكرورى » . أبو الرجال يا سيدى . بيحب .. مغرم صبابة .. « زين » فى غرابة بيحب ! .. مغرم! .. مغرم بمن ؟ .. «فواز» ساخرا : عاشقنى أنا ..

ضحك « زين » وعاد سائلا « فواز » : لا صحيح .. بدون هرج ..

أنا بتكلم جد ...

أجاب « فواز » بصوت هامس : فاتنة .. فاتنة خطفت قلبه فى «نجع العرب » ؟..

تهلل وجه « زين » بالبشر والفرحة وهو يقول : ربنا يسعدك يا أبو الرجال .. الرجل له أربع نساء يجمع بينهن .. ويارب كل رجل فى أولاد « الدرايسي » يتزوج أربعة ، وربنا يهنيه ويعطيه عشرين رجل ..

قال « فواز » : نحن عزمنا على السفر لنجع العرب .. نقرا الفاتحة ونقدم مهر ابنتهم .. ويكون أكبر مهر دفع لعروسة فى نواحيهم طوال عمرهم .

فأنشد « زين » قول ابى تمام :

**تهون علينا فى المعالى نفوسنا ومن يخطب الحسنا لم يغلها المهر**

قال « فواز : المهر خمسون جنيه وعدد أربع جمال محملين هدايا وأثواب للعروسة ولأهلها والنجع كله .. ونكتب الكتاب ونجيب عريسنا وعروسته معانا على « مغاغة » ..

شرع « زين » والفرحة تقفز من عينيه : سيكون فرح العمر .. يبقى حديث « مغاغة » كلها وبلاد الغروب .

طاب خاطر « همام» لرد فعل شقيقه والعامر قلباهما بحبه الشديد

واختلج قلبه بالسعادة والسرور وشرد فكره فى « ناجية » وجمالها وفتنتها وصورة الوشم الساحر فى زرقته المشوبة باخضرار على ذقنها .. وعينيها الساحرتين .. وصوتها المرتعش الانثوى الرقيق الذى ملأه شجنا وطربا .. وطولها الفارع المنسق فى حليتها البدوية الوقورة والمطرزة بخرز يضوى فيبهر عين الرائى .. ابتسم « عثمان » وهو هائما .. رأى شقيقة « زين » الذى كان يرقبه منذ برهة طويلة حالته هذه فطفق سائلا : فى حاجة يا « همام » ؟ .. مالك ؟

ولكن «همام » هناك فى البعيد حيث تسكن « ناجية » من خياله .. وما انفك « زين » قائلا : لا يا أبو الرجال .. أنت متيم بالفعل بحبها .

ووجه حديثه لشقيقه « فواز » : حالته لا تحتمل تأخير.. لا بد أن نسرع به نحو طبيبته .. فلا أعلم منها بدواه يا ولداه ..

أجابه « فواز » جهزنا كل حاجه وكلها يومين ونتوجه إلى « نجع العرب » كل ذلك ولا زال « همام » هائما ومنعزلا عن الوجود مع فتاته هناك .

هز « زين » رأسة وهمس : لا يلومك إلا من لم يذق الحب ، ولم يشفه الهوى .

ثم مصمص شفتيه فى أسى وندت على وجهه زفرة أسى طويلة.

* * *

بدأت السهرة لتوها بقصر الخواجة ، الصالة الواسعة تضج بالبهوات .. العطور الثمينه تفوح من الاجساد البضة العارية لذوات الحسن من نساء البهوات والبكوات ورجال الثروة والمال .. اختلطت الضحكات الرنانة بقرع الكؤوس وجلبة الندامى وثرثرة الرجال والنساء .. وقف الخواجة فى بذلته السوداء « الليسموكن » البراقة يختال كالطاووس المزهو بريشه المزركش صارخ الألوان .. أشار إلى راقصة القصر « عزيزة » . هرولت إليه وهمس لها : اين نشاطك الليله انت و « العنتبلى » ؟ .. أريد رؤية رقص شرقى يجنن مع صوت « حسونة العنتبلى » . أنا عايزك تهبلى الأجلاف الفلاحين ومن هم عايشين فى دور البهوات ..

أجابته هامسه فى نبرة عتاب : ومتى ترحم أنت قلب «عزيزة»؟ .. « عزيزة » التى حطمت قلوب الرجال ! .. أشاح لها بيده فى ضيق قائلا : روحى لشغلك يا بنت « منبية !»

داعب « حسونة العنتبلى » الناى وراحت « عزيزة » تتمايل وتتبختر وترتعش بقوامها الرائع وعجيزتها المستوية .. ساقيها المدملجتين وطولها الفارع الممتلىء يأخذان بمجامع القلوب ويطيشان بالعقول السكرى من خمر الكؤوس ومن سحر « عزيزة » ورقصها الفاتن . وجاء صوت « حسونه العنتبلى » شجيا مع الناى

الحزين فكان لها وقع الوجع الحلو يصدح بكلمات أغنيته :

**حرام عليك رق يوم ... حرام عليك خلتنى لوم**

**مابين عوازلى وحسادى انا ... انا ..... انا عايش لليوم**

**اللى تصافينى فيه ... وتوافينى فيه**

**وترحم ياظالم عذاب فؤادى**

**اه م الالم .. ... اه م الشجن**

**اه من عذاب قلب ............ .بعد الحب .....**

**ما فاتوا وسابوا للوم عزالوا**

**حرام عليك رق يوم .. حرام عليك خلتنى لوم ......**

**خـــلـتنى لوم**

كانت آهات « حسونة » تتفجر جراحات بقلب وكيان « شـوكت ناصف » الذى ارغمه ضعفه وهوانه أن ينزوى فى ركن بعيد .. مهمل .. وخلف الجميع .. تحرك الآهـة الماسـى فى كيانـه وروحـه جـراء غرام « عزيزة » التى ترقص أمام ناظريـه الآن ..وهـى ملكيـة مباحـة ونهباً لعيون الرجال .

كان له عزب وأطيان وخـدم وحشـم قبـل أن يظهـر الشـيطان فى

حياته .. أذن الشيطان فاطلق نحوه سلطان الغواية ونصب لـه شـرك السقوط .. فسلط عليه « عزيزة » ... وما أدراك ؟ ما « عزيزة » ؟! ..

و« عزيـزة » مباحـة الآن ، ينهـل الجميـع مـن كـؤوس غرامهـا ويرتشف من نبعها الصافى إلا انهـا محرمـة عليـه هـو .. كعاشـق ذل يمنى حبيبه بالوصل ، ووصـله للمحـال أقـرب .. يسـتعبد الحبيـب بالنهار ويقض مضجعه بالليل .. هذا هو حال « شوكت ناصف » مع « عزيزة » عشيقته أو بالأحرى معبودته .

رث الثياب .. منكوش الشـعر .. كـث اللحيـة.. أصـبح مسـخا ومادة للتندر والتفكه .. فـأطلقوا عليـه - قتيـل عزيـزة .. ومـع كـل الضياع .. وكل الهوان ، فالرجل يعشق « عزيزة » ..

كانت إحدى خادمات القصر توزع الكؤوس وقعت عينهـا عليـه .. نظرت له فى شفقة وقدمت له كأسـا ، كـان منكفئـا عـلى منضـدته ويبكى بكاءا موجعا يذيب وقعه أقسى القلوب .. انحنـت واقتربـت منه وهمست له : خذ .. خذ كأسا .. كأسا يا « شوكت بيه » ...

صكت الكلمة سمعه ، استعذب وقعها .. مـن زمـاااان لم يسـمع هذه الكلمة .. بيه ! .. بيه !.. ودع الكلمة مع اخر شـئ قـام ببيعـه .. خلصته الكلمة من شلال الدموع المتدفق مـن عينيـه .. رفـع رأسـه

ونظر من خلال دموعه وبصره الغائم لصاحبه الصوت وإذ بها «وصيفه» خادمة القصر .. أنت ؟ .. أنت يا « وصيفة » ؟..

عادت قائلة : خذ .. خذ كأسا يابيه ؟ ...

مد يده المرتعشة الواهنة .. ازدادت رعشة يده .. اضطرب الكأس فى يده .. انسكب نصف الكأس على ملابسه وهو لا يدرى ولا يشعر غائبا عن الوجود .

وما أن تلعب الخمر برأسه تتركه يهزى ويغمغم .. اشتد به الأمر .. علا صوته فى احتداد كأنه يواجه عدوا يقف أمامه .. وما لبث صارخا ثائرا وبأعلى صوت يسب ويشتم الخواجة ويصفه بالخنزير النذل .. يأتى إليه خدم القصر يحملوه ويلقوا به خارج أسوار القصر وهكذا فى كل ليلة .

سأل أحدهم ذات مرة الخواجة : لماذا تصبر على وقاحة الرجل؟..

أجابه الخواجة ساخرا منه ومن سؤاله قائلا : أنت رجل عبيط !.. إنه تافه مهبول ومخمور – أتضرنى وقاحته ؟ .. وهو لا يساوى شيئا عندى حتى أفكر فى قتله أو دفنه حيا ... انا الذى قررت أن يبقى هذا المعتوه على قيد الحياة .. أتدرى لماذا ؟ ..

لم ينبس الرجل ببنت شفة وبدا كالمشدوه ، والغرابة تكسو ملامحه..علم الخواجة منه الجهل بالجواب فقال له : أنا تركته عبرة لك ولأمثالك – لتعلموا أن مصير البهوات الفلاحين عندى كهذا الأخرق المعتوه .

تركه السائل مرعوبا ومذعورا وهو يقول فى نفسه : كأننى حادثت الشيطان ... لا يمكن أن يكون ذلك الرجل آدمى أو ينتمى إلى البشر..

وعلى غير العادة وهو فى حفلته جاء خولى الدائرة وهمس له فى أذنه ، تأبطه الخواجة وانزوى به إلى ركن بعيد منفردا به وهمس الخواجة له : لم أسمعك ... ماذا قلت ؟ ..

– قلت عندنا أشغال فى الأرض وجميع فلاحين الغروب امتنعوا عن العمل ..

رد الخواجة فى استغراب ودهشة : جميعهم ؟ ...

– نعم يا بيه ؟..

– كل الفلاحين فى الغروب وبلاده امتنعوا .. حتى فى شم ، ودهروط ..

– نعم يا بيه ؟..

– طيب سالت عن فلاحين فى طنبدى ؟ ..

– يا بيه فلاحين طنبدى يعملون فقط فى دوائرهم وفى أراضيهم لا يعملون خارج زمام بلدهم ...

صمت الخواجة فى غضب وضيق وامتلأ غيظا وظل مطرقا فى صمته وسهومه ، أعاد خولى الدائرة سؤاله عليه : دبرنى يا سعاده البيه – ما العمل ؟ خصوصا وأن موسم جنى القطن اقترب وعندنا سبعمائة فدان قطن كيف العمل يا بيه ؟ ..

بدر فى مخيلة الخواجة « الشيخ خضر الغرباوى » وأولاد «الدرايسي » .

عض نواجذه وهمس قائلا : ولو أيها الأجلاف ؟ ..

ساله الخولى : قلت حاجة يا بيه ؟ ...

نظر اليه الخواجة فى ضيق : لا ... لا شئ ...

ثم صمت برهة مفكرا وعاد للخولى قائلا : اذهب الليله لعصابة «جابر الأعرج » ... أتعرفهم ؟ .

– كلهم ... « معداوى ».. و« أبو سريع ».. و« الزنفلى » .. والزعيم طبعا لهم « جابر الاعرج » ..

– تمام بلغهم يقابلونى بكرة فى الاستراحة على النيل بعد منتصف

الليل .

- خلاص يا بيه ... أمرك .....

ويتركه الخولى وينصرف ، وما انفك الخواجة عائدا لحفلته .

* * *

كانت حياة ( ماجى ) قبل حب « زين » مقفرة موحشة خاوية ... الآن بقى لقلبها آمال ... آمال تربطها بالعالم والحياة من حولها .. فلاغرو وان هذا الحب تعلق برجل حقيقى وأزهرى ومن نبت هذه الأرض الطيبة التى ولدت فيها وعاشت فى أكنافها .. وهى أرض مصر وفى حضن النيل السعيد وعلى بقعه رائعة من ارض « مغاغة » لا يبعد قصرها عن النيل سوى مائتى متر بالجانب الغربى .

جلست وحيدة فى غرفتها تاركة الحياة الصاخبة لأبيها وحفلاته ومجون حاشيته وعربدتهم .. أغلقت غرفتها وانكبت تقرأ فى نهم وشغف كتاب من كتب السيرة للرسول الاعظم اهداه لها « زين » .. استحالت كتلة من الإعجاب بسيرة أعظم رجل انجبته البشرية .. وبدا لها النبى هالة من النور البهى والإجلال والجمال تتوق إليه الأرواح الظمأ ى إلى الأريحية العطرة ونبع التوحيد ...

كان « زين » حدثها طويلا عن الإسلام وعن رسول الله وأهداها

كتابا فى التوحيد ونسخة من القرآن الكريم غير كتب السيرة ، ودعا لها أن يفتح الله عليها ويشرح صدرها للإسلام .

شعرت « ماجى » بأن نورا يقذف فى قلبها وكيانها ويسرى فى جميع خلايا جسدها .. إنه نور الإيمان ، حينما تتهيأ النفس لحضرته وجلاله .. أحست بإحساس لم تمر به من قبل وكأنها تولد من جديد .. وأن قوى علوية تأخذها نحوها وهى تسايرها برغبة محمومة ومليئة بالسرور والسكينة والراحة والأمن .

شهقت ثم زفرت فى قوة زفرة طويلة كأنها أخرجت معها تلال الظلمات التى جثمت عمرا على قلبها .. وكأن هذه القوى تطرد من داخلها الأدران والاوزار وتهيئ الروح للنور الجديد السرمدى الخالد .

وهى على هذه الحال وإذ بروحها لا بلسانها وبقلبها لا بعقلها تنطق : الله .. الله ....

وتباعا أردفت : لااله إلا الله ..

نطقت بالتوحيد وبصوت مرتفع ، خرج عفويا دون أن تدرى .. نظرت حولها .. هى تتحسب أن يكون قد سمعها أحد .. قامت وفتحت باب غرفتها ونظرت يمنة ويسرة لم تجد أحد .. اطمانت ودخلت ثانية ثم أغلقت بابها .. عادت فقرأت فى صمت سورة

الفاتحة وأعادت قراءتها مرات حتى أيقنت من حفظها .. بعدها أغلقت المصحف .

أطلقت العنان لخيالها حيث يسكن فيه حبيب القلب وحده مهيمنا على مملكة الخيال وحده .. وذاك هو الفكر والسهد اللذان وصلا بها حتى تباشير الصباح .. وهى سيرة كل ليلة مع مواعيد الخيال .

* * *

اصطحبت « ام الدنف » معها « زهرة » وتوجهتا سويا نحو «الشيخ المرجوشى » تركت أم الدنف « زهرة » فى صالة ضيقة قليلا بمنزل الشيخ – ودلفت هى داخلة إليه فى حجرته .. روائح تنتشر بالمكان تزكم الأنف .. بعد برهة خرجت من عنده ونادت على زهرة» .. دخلت « زهرة » تتبعها « أم الدنف » وهى تقول لها : ادخلى بقدمك اليمنى يابنيتى وسمى اسم الله وقفت « زهرة » شاخصة دون حراك ، وهرعت « أم الدنف » جالسة بالقرب من الشيخ وخاطبته : زهرة !... هى زهرة !.. ست الستات ! .

جلس الشيخ المرجوشى فى ملابس الدراويش ، ثوب مرقع ، على رأسه طربوش وفوقة عمامة خضراء .. قوى البنيان كالفيل ، وفى رقبته تدلى عقد كبير تنتظم به حبات سوداء لامعة – بيده اليمنى

أمسك مسبحة طويلة تتوسط حباتها خـرزة زرقـاء كبيـرة ، وفى يديـه خواتم كثيرة ذات الوان متباينة تسترع الإنتباه .. أمامـه مبخـرة يلقـى بيده اليسرى بالبخور فيها من آن لآخر فينطلق الدخان بكثافة وأمامه كتاب كبير باهت الغلاف وأوراقه صفراء قديمة .

ألقى الشيخ بالبخور فى المبخرة فاندفع الدخان بكثافة مطبقا على جو الغرفة ! راحت « زهرة » تعطس وتشيح بيدها لتبعد الدخان عنها حتى يمكنها التنفس .. خاطبتها « ام الدنف » اعطسى .. اعطسـى .. واخرجى كل شـئ ردئ مـن جسـدك .. الـدخان بركـة مـن الشيـخ المرجوشى .. صرخ الشيخ معنفا « ام الدنف » : اخرسى ياست انت .. الكل يخرس فى حضرةالأسياد لا صوت .. لاهمس .. ولا حركة .

راح يغمغـم ويتمـتم بكلمـات مبهمـة وصـوت غيـر معلـوم المفردات وهو يمسك مسـبحته الطويلـة عنـد منتصـفها مـن الحبـة الزرقاء واخذ يبرجل ويرتعـد رعـدة قويـة ويـرتعش ثـم أخـذ يتلـو بصـوت متبتـل عزيمتـه « اقسـمت علـيكم ايتهـا الأرواح العلويـة والأجسام النورانية بحق بسم الله الرحمن الرحيم وبحق الاسم الذى أوله ال واخرة ال ال شلع ال وبحق اهيا شرا هيا ا هيا هها يا نما هيـا ادوناى استباؤت ال شراىئ إن تجلبوا محبة « زين حواء » إلى

« زهرة بنت نعيمة » وأن تجعلوه لاينام الليـل مـن حبهـا وعـلى لسانه دوما اسمها وأن تجعلوا ما عداها عنده قرد قبيح المنظر مكروه

المخبر الوحى الوحى الحين الحين العمل العمل الساعة الساعة .

ثم صمت الشيخ وهو يحرك شفتيه دون صوت .. ثم ارتعد وارتعش فى قوة ثم عاد إلى اتزانه هادئا ، تحولت زهرة إلى كتلة من الرعب والروع وخاطبها الشيخ : انت زهرة « بنت « نعيمة » ؟...

ولكن زهرة « صامتة ومعقودة اللسان .

أعاد سؤاله عليها دون إجابة من « زهرة » ..

أجابته « ام الدنف » : نعم يا سيدنا الشيخ ... صح .. صح ..

طفق الشيخ قائلا : ترد هى .. ترد صاحبة الحاجة ..

راحت « زهرة » تغمغم بكلمات متقطعة .. صصصح ... زهررة . نعييييمه ...

الشيخ وقد علا صوته : نجمك نارى .. غضبك سابق لحلمك . وبغباوتك وقلة عقلك ضيعتى حبيبك من قلبك .

« زهرة » وقد هدأ روعها واطمانت قليلا وفى ارتياح قالت مؤكدة :: صح .. صح ياعم الشيخ ...

عاد الشيخ يهمهم ويغمغم وشرع قائلا : ناظرك على طريق واحد ، انت وحبيبك فوق حصان أبيض ، لكن .. لكن بينكم حرباية لعوب تقف بينك وبينه راكبة جمل أسود . .

وفى غرابة ودهشة وانكسار ترد «زهرة» : جمل اسود !.. انا عمرى ما رأيت جمل اسود؟! ..

الشيخ وهو يهمهم ويبرجل : اى نعم .. جمل اسود .. يحمل خصم أو عدو يظهر فى الكشف باللون الاسود هو أو أى شئ ملازم له .

صمت وعاد يلقى بالبخور وهو يتلى عزيمته وما طفق قائلا : سأجلب لك حبيبك وأرجعه لك ذليلا يقبل قدمك ويمسح الدمعة على خدك .. لكن عليك انت واجب ومهمة ، لا بد أن تقومى بها وتنفذيها ...

« زهرة » فى خفه ورعونة : الحقنى ياعم الشيخ .. الحقنى بها .. ماهى ؟.

وفى تؤدة وأناة أردف : عينك تبقى على حبيبك ، تراقبيه هو والبنت - بنت الخواجة .. تعرفى متى وأين يتقابلان، ثم تفضحى أمرهما عند الخواجة .. أبو البنت واعر جبار ويمكن يقتل البنت .. المهم سيفرق بينهما .. ويرجع حبيبك لك يقولك :: شبيك لبيك .. عبدك وملك ايديك ... خلاص انتهى موضوعك وحاجتك قضت يا بنت « نعيمة » ...

صمت واخرج حجاب من جيبه وأعطاه لها وهو يقول : تعلقى

الحجاب فى شجرة عالية فى مهب الريح .. وكل ماتهب الريح ويتأرجح الحجاب قلب حبيبك سيهتز ويرتعش بحبك مثل الطير الذبيح . وفى وصفة لازم تحضريها وتجيبى كل حاجة فيها حتى لو من تحت الارض وروحتى بلاد السند والهند .

فى تودد ورجاء وخفة طفقت « زهرة » سائلة : ما هى ؟ .. ما هى الوصفة ياعم الشيخ المرجوشي .

خمسين جرام حلتيت ، عشرة جرام كوم عفريت ، عشرة جرام دهن خرتيت ، عشرة جرام سنتليت على حفنه تراب بيت وخمس نقط زيت وتتركيهم فى الندى وسط الزرع والغيط ، وتنقعيهم فى خبط ملط وعليهم قدحين مياه من جرة البيت وترشى المنقوع على سكة حبيبك وعتبه البيت .. ومع السلامة يا بنت « نعيمة » وبعد شهر تعودى مرفوعة الراس والقيمة .

أشاحت « ام الدنف » إلى « زهرة » وهى تقول : روحى انت يا « زهرة » .

... انتظرينى فى الصالة ..

وتجلس « ام الدنف » وحيدة مع الشيخ ، تضع يدها فى صدرها وتخرج بعضًا من أوراق النقدية تعطيها للشيخ ، يمسكها الشيخ ويعدها ثم يعترض قائلا : فقط :.. ثلاث جنيهات فقط.

وكزته فى صدره وقائله له : ثلاث رصاصات لما يفجروا صدرك .. زيادة عليك .. وزيادة عليك يابن « سعيدة الخبازة » .. والله أفضحك واهتك سرك .....

الشيخ فى تودد وملاطفة واضعا يده على فمها : العقل يا « ام الدنف »

ارجوك .. لا تخربى بيتى .. خلاص .. خلاص ... خلاص يا « ام العقارب »

عقربة لما تلدغك .. قليل الحياء .. صحيح يا أولاد اللي اختشوا ماتوا ... انت عمرك مسكت قلم يا جاهل يابن الجاهل يا نصاب .

... قال – يقولى : كوم عفريت .. عفريت لما يلبسك يابن « سعيدة الخبازة ».. عقبت لك الندامة والصدامة ليوم القيامة يا بعيد .....

وتخرج حيث تنظرها « زهرة » ......

❊ ❊ ❊

مرت ثلاثة أعوام على مشروع تعليم الصغار .. أينعت العقول الصغيرة وأثمرت .. حفظ الكثير من الأطفال القرآن وختموه .. وأعداد كبيرة التحقت بمعهد المنيا الأزهرى ونفقتهم كانت على المشروع .. فرحة الآباء لا توصف بأولادهم وازداد الوعى وأحبوا

العلم والتعلم .. درس الأطفال إلى جانب القرآن مبادئ اللغة العربية وأصولها والمطالعة .

تشجع ذوو والأطفال نحو تعليم أولادهم وقويت إرادتهم وتجرأوا على عدوهم وعدو العلم وهو الخواجة .. هجر جميع الفلاحين أرض الخواجة .. منهم من رحل إلى بلدان بعيدة وقد آثر الغربة والكد والشقاء على حرمان أبنائهم من الدرس والتعلم . وقد زرع فيهم هذه الجراة « عثمان » .. أبو الرجال .. كما كان « للشيخ خضر الغرباوى » دور كبير إذ منع أهل الغروب جميعا من العمل فى أرض الخواجة .. تعاطف أولاد البلد مع « همام » وإخوته وتناقلت سيرته حكاوى الفلاحين فى المزارع والطرقات والأسواق وحتى فى المساجد ... فأصبح « همام » فى نظر الجميع بطلا شعبيا مثل « طومان »

باى « ...... أو كالفاتحين .....

ثلاثة سنوات فقط مرت تساوي عشرين سنة من حيث الإنجاز الذى تحقق .. والثمار التى قطفت .. ليس تفوق الأطفال فقط وعلو نجمهم فى سماء النور والعلم ولكن ماتم من تقوية الإرادة وانتشار الوعى له أكبر إضافة إلى قوة الثبات على الطريق إزاء تحديات العقبة الكؤود التى أوشكت أن تنقشع عنها غيمة الخوف والفزع والرعب فتنكشف وتتعرى ويسقط عنها زيفها .

ثلاثة سنوات مرت أوصلت « زين » وصاحبه « الشيخ طـه » إلى السنه النهائية وإذ بهما يتوجان الأوائل على الجامعة - الأول « زيـن » با متياز والثانى صديقه « الشيخ طـه » ... وقـد تـم ضـمهما لهيئة التدريس ليكملا الدراسات العليا على نفقة الجامعة .. كانت الفرحة غامرة لأولاد « الدرايسي » وذويهم وأهل « مغاغة » ......

وأرسلت « ماجى » خطابا مع « وصيفة » لأنها لم تـتمكن من مقابله حبيبها تبلغه فيه تهانيها الحارة عن نجاحه وتفوقه وتصف لـه فيها مدى فرحتها وسرورها البالغين وافتخارها به وبهذا النجاح .

أخبرته بجانب التهانى بالنجاح أنها اهتدت للإسلام وهى الآن تصلى وتقرأ القرآن وفى الكتب التى أهداها لها .. وذكرت بأنها تدعو له فهو سبب هدايتها وكذلك الحب الذى جمع بين قلبيهما .. وأنها تعيش فقط لعبادة الله وللحب ... الحب الذى انار حياتها وظلام نفسها فكشف لها الحجب عن النور الأعظم .. ارتباطها بالحياة كان لذلك الحب وتمسكها به .. وسيبقى لآخر عهدها بالحياة .. خالدا فوق الزمان .. دمت لى حبيبا وحدك .. هكذا ختمت رسالتها .

**المخلصة ماجى**

الرساله لم تخطها بقلمها ولا بيدها ولكن شفتها روحها بمداد الشعور المتدفق من نهر الحب المترع بالهناء والذى يختلج بين جنبيها .

لم يدر « زين » أنه يقف على قدميه على الأرض .. ولا يشعر بوزنه ولا بجسده .. أحس أنه استحال لروح غريب الجمال يرفرف باجنحة من ضياء القمر ... كأن الحب بعثه مخلوقا آخر .. إلى شى أثيرى ... لايحس ولا يلمس .. وأخذ يتحسس جسده بأنامله غير مصدق لفكرة وجوده كمادة وجسد !!.

وأطلق العنان لخياله لكأنه فى عالم آخر لا ينتمى لهذا الكون ومعه حبيبته « ماجى » ترتدى رداء العرس الأبيض الملائكى .. ليس دونها مخلوق فى هذا العالم .. يمسك يديها وعينيه صوب عينيها ورحل عبرهما وإذبهما بحر أزرق لا نهاية له وسابر الاغوار ليس له قرار .. العالم من حولهما يغمره نور خافت يميل إلى الخضرة .. والارض بساط ممتد لا آخر لها .. وفراشات ملونة ومزركشة تطير من حولهما تخفض أجنحتها وترفعها فى خفة وسرعة كأنها تحية سلام وأمن وأمان للعاشقين .. صوت أغنية الكروان تصدح فى الأفق .. نسمات بليلة عبقة ومحملة بعطر اليا سمين فى ليلة ليست باردة تقبل الوجنات الساخنة من لهيب الشوق وكأنها تصاريح للعشق والهوى!!!.

سال نفسه : أهذا هو النعيم المقيم ؟ .. أهو الفردوس المفقود؟..

لا .. وانما العالم الذى يدخلك فيه خيال العشاق وروعة الحب .. إنهم وحدهم العشاق الذين يصنعون من الخيال عالماً وجناناً .. هم القادرون على نفض الجسد ورداء العادة والطير محلقين بسر وسحر وغموض الأرواح !!..

إن كل وعى « زين » الحاضر قد غاب واحتجب إزاء هذه المشاعر وتلك العوالم التى نظرها وأبصرها وعاش فيها مرور الحلم.

إن ذلك كله سر الحب وسر المرأة ؟.. المرأة تلك الفتنة التى حيرت العقل وأطاشت بلب اللبيب .. وأذلت بحبها عز العزيز .. وأعزت بحبها ذل الذليل ... وراودت صلابة القسوة لدى الرجولة فأحالتها شعورا طفوليا بريئا يستنيم على راحة يدها .

هز « زين » رأسه وأومأ إيجابا وقبولا وموافقة لأمر الحب والتسليم والإذعان لسلطان الهوى .

* * *

أوشك موسم جنى القطن على البدء ... والفلاحون غادروا أرض الخواجة .. جميع الأراضى لا تطؤها قدم فلاح واحد .. لأول مرة فى حياة الخواجة يتعرض لهذا الموقف العصيب ... وهو الآمر

الناهى الذى تكفيه مجرد إشارة ليهرع الجميع منكفئين عند قدميه ..

تغير الحال وتبدل المآل .. هاهى « مغاغة » ونواحيها وكافه بلدان الغروب تقاطع اراضيه والعمل فيها .

جلس منكفئا فى صمت وسهوم ثقيلين يلعن فى نفسه أولئك الفلاحين الأجلاف غير مصدق لما حدث ويحدث .. ما كان ليتوقع ذلك فى أسوأ كابوس يقتحم عليه هدأة نومه .. تساءل : أى عمل عملوه أولاد « الدرايسي » جعل من هؤلاء الموتى أحياء ؟.. أحياء يقررون ويفعلون ؟.. تبا لأولاد « الدرايسي » ..

لقد عكروا حياتى كلها .. تعدوا كل الحدود .. صارت ارضى مهجورة كالقفر الموحش .. انه الضياع والعدم ! .. احتد « فرعون » وقد زفر زفرات ملتهبة كأنها فحيح أفعى جريحة فى حالة هياج وطفق قائلا لنفسه : كان بينى وبين أولاد « الدرايسي » حالة من اللاسلم واللاحرب – كنا سويا راضين بهذه الحالة .. بيد أنهم أبقوا على الأولى وغيروا الثانية .. فتحوا النار وأشعلوا اللهب .. ليكن .. لقد اختاروا جحيم !.. فليكن جحيماً اذن !......

والآن لابد من عودة الفئران لكهف الخوف والرعب من جديد .. لابد من قطع طريق التنوير عليهم ! .. لابد من قتل الوعى عندهم!...

قفزت إلى خاطره صورة الشيخ « خضر الغرباوى » فـار تسـمت ابتسامة بشعة تقطر هـزءا وسـخرية وتحقيـرا وقـال فى نفسـه : حتـى الدرويش – ما يسمى « خضر الغرباوى » .. حمـل فلاحـى الغـروب على العصيان ورفض العمل عند أسيادهم .. هذا الدرويش الأبله ... ستحل نقمتى وسينزل غضبى بالجميع ..

جاء اليه خولى دائرته وهـو يضـرب كفـا بكـف ويولـول : عليـه العوض ومنه العوض .. القطن سيضيع منـا .. موسـم اسـود .. أيـن الأنفار ؟ ... أين هم لجنى المحصول ؟..

سمعه الخواجة فا ستشاط غضـبا وانفجـر صـارخا : اذهـب إلى الجحيم انت والقطن يا ابن القحبة !.. فليتحـرق القطـن وانـت ! .. المسألة فاقت محصول القطن يا حمار إنها اكبر بكثير .. انت اهبل !.. غور من وجهى .. أنا لا أريدك ولا اريد الفلاحين الكلاب !!...

ارتعب الخولى وتركه وهرب على الفور خوفا من بطشه .

عند ذلك صمت الشيخ « بركات » وتنفس الصعداء .. هز رأسه في عظة وتدبر بـالغين .. سـأ لـه سـالم : تـري – عـلي أي شـئ ينـوي الخواجه يا عم ؟

أجابه « مأمون » : ربما ينوي سوءاً بالطبع ! .. تجاه جدي «همام» وإخوته ...

نظر إليه الشيخ « بركات » قائلاً ليس فقط جدك « همام » وإخوته، انه يضمر السوء لكل أولاد البلـد .. إن « مغاغـة » كلهـا هـدف الآن لحقده وغله وعداوته ..

قال سلمان : تجسدت ملامـح الصـراع واسـتبان طرفـاه بيـد أن الخواجة وصلت شحنة العداوة لديه ذروتها .. ويهيأ لي أنه علي وشك الانفجار .

وسأل « سالم » وماذا ستفعل « زهرة » ؟ وماذا عن « زين » ، وإبنة الخواجة « ماجي » ؟ الحديث ذو شجون »

نظر اليه الشيخ « بركات » والتأثر البالغ يكسو محياه وقال : كـل ذلـك سـتعرفوه .. لا تسـبقوا الحـوادث .. وراح يقـص في أسـلوبه الممتع والأخاذ ..

***

عمدت « زهرة » علي التقرب من « ماجي » ثانية مصطنعة التـودد والملاحقة ولأن صاحبتها طيبة القلب وثقت بهـا .. إلا إن « زهـرة » أخذت تترصد لها حتي عرفت كل شئ بينها وبـين « زيـن » وأمـاكن ومواعيد اللقاءات بينهما .. ولكي تؤكد لإحدي الخادمات في قصـر الخواجة هذه العلاقة أخذتها وأختبأتا بين المزارع ورأتا معـا مقابلـة «زين » وحبيبته « ماجي » .

أذاعت الخادمة هذا الخبر بتشجيع من راقصة القصر « عزيـزة » التي تحول عشقها للخواجة الي نقمة عليه جراء كسره لقلبها ودونما ادني مراعاة لها كإنسانة .. وفرحت « عزيزة » وكادت تطير لانتشار خبر قصة الحب بين « ماجي » و « زين » فلما أطمأنت هي أن الجميع قد علم بالأمر .. ذهبت الي الخواجة منتشية وهي تتبختر في مشيتها متعالية تنظر من فوق أرنبة أنفها ثم قالت »

أظن يا سعادة البيه إن الناس متساوون .. وإن الجميع أولاد تسعة .. ومن ينسي ذلك – ففي أوقات رغما عن الانسان يعترف بأن الناس متساوون عارف ما هي الأوقات التي أقصدها ؟ نظر الخواجة بغرابه دون رد .

فتابعت هي تجيب علي سؤالها : إنها اوقات الحب – الوقت الذي ينزل العشق فيه بالقلوب .. ساعتها لا فرق بين أمير وخفير ولا بين سيدة وخادمة ولا بين صالح وطالح .

نظر الخواجة لها في هزء وابتسم ساخراً : منك نستفيد يا حكيمة العصر والأوان !!

ابتسمت هي في هزء مبادلة سخريته بسخرية قائلة : إثبات كلامي يا معالي البيه الكبير ابنتك !! ابنتك « ماجي » صرخ هو واقفاً وراح لاطما وجهها في قوة طرحتها أرضاً وهو يقول بنتي أنا ؟ .. بنتي أنا يا

ابنة القحبة ؟

« عزيزة » وهي طريحة أرضاً ومتكئة علي كوعها الأيمن : بنتك عاشقة « زين » ابن « الدرايسي » ويتقابلآ عند الساقية المهجورة وعند الربوة في بستان النخيل .. الدنيا كلها عارفة إلا انت .. إلا انت يا مغفل .. وأسأل خادمتك ، واسأل « زهرة » ابنة شيخ البلد صاحبة بنتك .

وثار كالمجنون وسأل خادمته وجاء ببنت شيخ البلد أكدت له هي والخادمة العلاقة وأنهما قد رأتا « ماجي » وزين يتقابلان سرا وبالليل ..

اندفع كتلة من الغضب والحنق وهو يصرخ منادياً : ماجي ! .. ماجي .. واجتاز الدرج للطابق الثاني في جلبة واحدة ، دفع باب حجرتها وكانت واقفة عند شرفتها المطلة علي حديقة القصر الشاسعة ففزعت مرتعبة وهي تردد : دادي ! دادي .. ما الأمر ؟

انقض عليها وجذبها من كتفها صارخاً .. أصحيح ؟ أصحيح ما سمعته من الخادمة وصاحبتك « زهرة » أصحيح أجيبي إذ سألتك : هل صحيح ؟.. انك عشقت ؟ أعشقت الفلاح ؟ .

« ماجي » كتلة من الرعب والروع وقد انعقد لسانها ..

ازداد هياج أبيها وطفق معاوداً صراخه : « قولي لي » انه غير

صحيح قولي لي أي شئ .. اكذبي علي .. ولكن لا تصمتي .. صمتك يقتلني ! .. ولكن « ماجي » غائبة عن الوجود تهرب بكامل وعيها وتقفر من لخبطتها الي مصير غرامها .. حدقت في الخطر الجاثم والمحدق بحبها .. لكن ماذا تفعل ؟ لاح لها ليل الفراق الطويل في خيالها فوجدته بشعاً وقاسياً ومرعباً !!

لم تشعر بوجود والدها ، ولم تعد تسمع صوته رغم ثورته ، ولا ثمة إحساس لديها بضرباته المتتالية المتتابعة علي جسدها الرقيق .

فلما يأس منها وأيقن لا محالة بصدق رواية العشق ، أمسك جانبي رأسها بكلتا يديه وثبتها في عنف وخاطبها قائلاً : لقد عشقت مثل أمك !! .. طالما سألتي عن أمك دون اجابة مني .. الآن .. والآن فقط أخبرك : عشقت أمك وخانت فقتلتها ودفنتها اسفل قصري هذا !! ألا تعرفي عشقت من ؟ لا تعرفي .. هي عشقت المعتوه المخبول العره المدعو « شوكت ناصف » قتلتها هي ودفنتها .. لكن هو لا يستحق ميته واحدة .. ولكن يموت كل يوم مئات المرات .. جعلته يتمني الموت فلا يجده ، لأن الموت تركه وعافه منبوذاً ذليلاً مشرداً تدوسه الأحذية .. وأنت بدورك لن أقتلك .. وإنما سأتركك تبحثين عن الموت عند جثة غرامك فلا تجديه .. سأنفيك من « مغاغة » ومن أرض « مصر » كلها .. سأرسلك إلي «باريس » حيث تعيش خالتك هناك ..

نادي إلي خفر القصـر وأمـرهم بحبسـها في غرفـة أسـفل القصـر وحذرهم من خروج سرها وهـددهم بالقتـل حتـي ينهـي إجـراءات سفرها الي « باريس »

❊ ❊ ❊

نسمات سبتمبر تهب علي الوجوه الكادحـة طـوال النهـار الملـئ بالتعب والكد في جنـي القطـن .. غـلا لـه حمـراء مـن أشـعة شـمس الغروب تكسو جبال البحر الأحمر في الجانب الشـرقي للنيـل فتبـدو لوحة فنان سحره الجمال فشـفته روحـه ونفثتـه إبـداعاً غشـي هـذه البقعة من الأرض .

النيل السـعيد يتهـادي في يسـر وسـخاء يقبـل الـزروع والـورود والنخيل ويدعوها لتستحم في كوثره المعسول .

بقية من يقظة النهار لم تزل في جلبة متراخية واهنة عائدة لـدورها في المساء لتهجع فى الليل وتتأهب ليوم جديد في البكور .

انسحبت آخر خيوط الضوء مع عودة الكـروان إلي عشـه مودعـاً الكون بدعائه الأزلي .. وبدت لتوها أصوات ليليلة تزعج هدوء الليل الوليد نقيق الضفادع .. عـواء الـذئاب في الحقـول .. صـوت البـوم وزعيقه .. تناول « يـونس » وأولاد عمومتـه « زيـدان » و « درغـام » و«محروس » وبعض الفلاحـين المقـربين مـنهم عشـاءهم انكفـأ «

زيدان » علي كانون به كوالح الذرة المشتعلة تحت « غلاي » شاي كبير ومن آن لاخر يضع في النار بعض الكوالح فتزيد اشتعال النار .. وراح الجمع يتجاذب أطراف الحديث .. تنحنح « محروس » ثم قال في صوته الأجش : الفلاحين كلهم خاصموا أرض الخواجة الملعون .

أردف « درغام » كان أول واحد في نواحي « مغاغة » يجني القطن هو الخواجه .. كان كل الفلاحين والنسوان والصغار مثل النمل في أرضه . لكن يا ولداه !!

قاطعه « جاد الحق » ساخراً : « بتقول » يا ولداه « درغام » .. كأن ابن الكلب صعبان عليك يا خايب .

لا لا .. والله ما اقصد يا ولد عمي .. انا بقولها استهزاء فقط .. والله هو ما قصدته .. استهزاء به ..

وتحدث « زيدان » بفكاهته المعهودة : انتم واجعين رؤوسكم بسيرة المخفي .. الله عنه ما يجنى لا هو ولا أمه ويارب موسم الجني هذا يطلع بعمره ونسمع خبره يارب .

الجميع وهم يضحكون لوقع كلام « زيدان »: اللهم آمين ..

وبعد احتساء الشاي والسمر .. قاموا فوزعوا أنفسهم علي جهات أربع لحراسة وحماية بالات القطن المتراصة .. والجميع يحمل

السلاح خاصة وأن الظرف ليل ويستدعي ذلك .

ثم استلقي الرجال جميعا من التعب والكد طوال اليوم .. غلبهم سلطان النوم وساعده النسمات الطرية الحنونة التي تخدر القلوب والعيون التي أضناها قيظ النهار الحار .

وبعد وقت قصير أو ربما طويل لم يدر أحد منهم قدره ، فزع الجميع من نومهم علي صراخ رجل تشتعل النيران في جسده وفي بالات القطن كذلك .. أذهلتهم الفاجعة وشلتهم المصيبة .. خرج «جاد الحق » عن دهشته صارخا في الرجال أنقذوا الرجل ! انقذوا «مخيمر » وجري ناحيته وقد خطف بيده بالات قطن فارغة فالقي بها علي الرجل واخذه في حضنه وحمله بعيداً عن النيران المشتعلة في محصول القطن .. عند هذه اللحظة انهال عليهم الرصاص من جهة الغرب .. تعالي صراخ رجل أصيب بطلق ناري ثم هوي علي الأرض جثة بلا حراك .. هرول إليه « يونس » تفحص وجهه فوجده ولد عمه «دورغام » تحسس جسده وجده غريق في دماه والاصابة قاتلة بمنطقة الصدر .. هزه في عنف وهو ينادي عليه في غيظ وضيق وقنوط : درغام!.. درغام !.. ولكن دون صوت .. دون نفس يتردد في صدره .. مات الرجل .. قتل « درغام » !! . نادي « يونس » بأعلي عقيرته في غضب وغيظ : اطلقوا نيرانكم علي مصدر النار .. خذوا ساتر بسرعة .. ثم امسك بندقيته ونادي علي ولد عمه « محروس » قائلاً له : محروس

.. النار !: أجابه « محروس »: أنا جنبك يا اخوي..

وراحا يزحفان سويا واقتربا من رجلين ، أطلق « جاد الحق » عليهما النار فأصاب أحدهما في مقتل فصرخ ووقع صريعاً .. حاول صاحبه أن يحمله فاصابه « محروس » فقتله فوقعت الجثتان متكومتين على بعضهما .. قام « يونس » قافزا نحوهما واتبعه ولد عمه .. هوي «يونس » عليهما أخذ سلاحهيما وأعطاهما لابن عمه ، أشعل نارا ونظر متفحصاً وجهيهما وجدهما « معداوي » والآخر «أبو سريع» .

فقال « يونس » لابن عمه « محروس » : الرجلان من عصابة «جابر الأعرج » وهو من رجال الخواجة .. اذن اتضح الأمر .. الخواجة وراء ذلك .. ليس لأحد مصلحة إلا الخواجة .. وسأل ولد عمه : تري كان مع الرجلين أحد آخر ؟ أجابه « محروس » : أكيد وقد هرب الباقون .. الرصاص كان يطلق علينا غزيرا وكثيرا .. ليستا بندقيتين فقط .. تقديري أنها كانت عصابة كبيرة ..

تركا الجثتين مكانهما وعادا إلي أرضهما وجدا الرجل الذي كانت النيران مشتعلة به علي قيد الحياة ولم يتضرر كثيرا فأخذه الرجال وأعادوه إلي بيته وأخبروا « همام » الذي لم يزل فى عرسه والحنة بيده ما حدث .. فترك عروسته « ناجية » واصطحب شقيقه «فواز » وخرج معهما أبناء عمومته وجمع كبير من اهالي مغاغة وسار

الجميع في طريقهم نحو الحقول حتي وصلوا الي هناك .. وجدوا «دورغام » قتيلا ومسجي بملاءة .. والقطن لم يتضرر سوي ثلث المحصول ... ولكن شفي غيظهم جميعا مقتل رجلين من أفراد عصابة « جابر الأعرج »

قال « فواز » في غضب ورعونته المعهودة : وراء التعدي علينا طبعا الكلب الخواجة ..

أشار له « همام » بأن يصمت وهمس له .. ليس وقته الآن يا أخي ، ندفن ولد عمنا ، ونجني محصولنا ونبيعه .. وبعده ما يقدره الله يكون .. اطمئن سيكون الدم بالدم .. والنار بالنار هل رأيت أخاك فرط في حقه من قبل ؟ هل رأيته تخاذل في مواقف الرجال حيث يجب أن يتقدمهم ؟

انفرجت أسارير « فواز» لوقع كلمات شقيقه وقال : لا يا أخي .. معاذ الله .. انت الحكيم والنبيل والقوي فينا ... !!

كانت تباشير الصباح قد بدت تطل علي الكون وجاء أهل «مغاغة» عن بكرة أبيهم الكل يشارك ويؤازر ! استبعدوا القطن المحروق وراح أفواج من الناس يجنون القطن .. بينما انشغل أولاد «الدرايسي» وأبناء عمومتهم في دفن أخيهم ..

أرسل « همام » إلي أهل القتيلين ليأخذا جثتيهما وأبلغهما بأن

أولاد « الدرايسي » هم قتلة الاثنين جراء تعديهما عليهم وعلي محصولهم ورجالهم وقتلهما لرجل منهم .

وقاموا بدفن « دورغام » وأخذ العزاء فيه ثلاثة أيام .

لم تتحرك حكومة أو سلطة ، لأن القتلى ليسوا من البكوات أو البشوات.. الحكومة و السلطة وجدا فقط لحماية هؤلاء وحماية الأقليات الأجنبية صاحبة الامتيازات الممنوحة بسخاء لهم من عظمة أفندينا الخديوى .

جلس همام وحيدا مضطرب الخاطر هويدرك تماما بأن قتل رجلين لايقدم ولا يؤخر لدي الخواجة .. فهو ينظر إليهما باعتبارهما عبيدا أو مجرد حشرات .. ولكن من جهة أخري فقطع أذرع للخواجة هو ردع لكل من يفكر بالتعاون مع الرجل .. بيد أن ما حدث ليس كافيا لدي « همام » وإخوته وأولاد عمومته .. تمت معادلة الدم بالدم ولكن بقيت النيران التي نشبت في أرضهم وفي أجساد رجالهم الأوفياء لهم وهذا ما لايمكن تجاهله او السكوت عنه .. ولكن لابد من ترتيبات قبل الإقدام على أي عمل انتقامي إزاء الخواجة .

هز رأسه موافقا في ارتياح لانتظار إنجاز ما يريده وتفرضه طبيعة الظرف

* * *

رتب الخواجة سفر ورحيل « ماجي » الي فرنسا وبالفعل تم سفرها بل نفيها علي متن سفينة متجهة الي موانى فرنسا كان « زين » وصديقه الشيخ « طه » في قاهرة المعز ولم يعلما بكل هذه الأحداث بداية من علم الخواجة بعلاقة ابنته مع « زين » وانتهاء بحوادث القتل التى وقعت

وكان الشيخ « طه » في زيارة لخاله « خليل سعادة » الذي يسكن في الحسين وهو يقوم بجلب الخضروات والفاكهة من الصعيد علي متن المراكب عبر النيل ويسوقها في أحياء القاهرة وبقي له سنوات طويلة في هذه التجارة .

التقي به « زين » فأخبره خاله بأنه كان منذ أيام في « مغاغة » وأن «الخواجة » علم بقصة عشق ابنتة مع « زين » ولد « الدرايسي » وقد وشت بهما « زهرة » ابنة شيخ البلد والراقصة « عزيزة » وأكد له أن التي أخبرته بهذه القصة هي « وداد الداية » وحكي له عن حوادث القتل التي وقعت وكيف إن أولاد «الدرايسي» قتلوا رجلين من العصابة التي هاجمتهم في أرضهم مقابل قتل ابن عمهم « دورغام » .

حزن « طه » حزنا شديدا لوقع هذه الأخبار واشفق علي صاحبه ورفيق عمره « زين » فكتم عنه هذه الأخبار ولم يبح له بشئ .

أجبرتهما الدراسة في الجامعة علي البقاء في قاهرة المعز أكثر من

ثلاثة شهور وقد انقطعت أخبار « ماجي » عن « زين » فلا رسالة ولا رسول يطمئن ويسكن لهيب الاشواق المتقدة في قلبه.

كان جالسا مطرقا وعيناه تلمعان وتـدور وتتحـرك فيهمـا دمـوع الحنين الجارف إلى محبوبته .. فلم يحدث منذ عرفها أن غابت عنـه هذه الغيبة دون وصال ودون خبر يولد الامل في اللقاء او الاطمئنـان عليها .. وبينما هو علي هذة الحال إذ خرج عن صـمته فجـأة وسـأل صديقه .. ألم يأتك أى خبر من « مغاغة » يا شيخ « طه »؟

ابتسم الشيخ « طه » ابتسامة ذات مغزى قائلا : أتقصد أخباراً عن الأهل أم الأحبة ؟

رد « زين » في ضيق : عن الاثنين

عاد الشيخ « طه » محاورا : لا لا ياصديقي أنا أريد التحديد .

صمت « زين » ونظر لصديقه في عتاب ولوم وهز رأسـه .. أدرك «طه » مغزى نظرته فاخذ يلاطفه متوددا وقائلا : والله يا صديقي لا .. لم أسمع شيئا .

وضع « زين» يدة علي خده واطبق عليه حزن عميق وبقي كتمثال دون حراك .. تأثر الشيخ « طه » لحال صديقه وطفق قائلا : إن شـاء الله تطمئن قريبا .

ولكن « زين » كان منفصلا عن العالم تماما .. ولايزال في صـمته

دونما ثمة رد على صاحبه يؤكد أنه سمع كلامه .

مرت عدة أيام علي هذه الحال .. قضى « زين » نهاره في شرود وسهوم وصمت .. وليله أرق وسهد .. إلا أنه عزم علي مغادرة قاهرة المعز متوجها إلي الصعيد ليقف علي الأمر ويطلع إلى ما حدث- ولكن في ذات اليوم تأتيه رسالة من « ماجي » في باريس إلي جامعة الأزهر فقام باستلامها وهو في غاية الفرح أعادت إليه روحه – وفتح الرسالة وراح يلتمها بعينيه في نهم وجاءت كلماتها :

عزيزي « زين » أنا لا أكتب هذه الرسالة بيدي انما انا املل خالتي فلم تعد ليدى القدرة على مسك القلم منذ داهمنى الشلل بيديّ ورجليّ منذ شهرين بعد إن وصلت إلي باريس بعدة أيام .. وبعد أن قام دادى بطردي ونفيى من مصر على أثر علمه بقصتى أنا وأنت .. كما أنني مصابة بتضخم في القلب .. حالتي ميئوس منها كما قال الأطباء .. إلا أنني لم آيس من رحمة الله كل ذلك هين علي إلا فراقك – فما أقساه على نفسي! .. إن حبك هو الأمل الذي يربطني بالحياة ويعطيني العزيمة والإرادة علي تحمل المرض وتمني الشفاء .. الي الملتقي يا حبيبي ! »

**المخلصة للابد/ ماجي**

لم تقو قدما « زين » علي حمله فوقع داخل حـرم الجامعـة ممسـكا بالرسالة في يده وعيناه تزرفان الدموع بغـزارة .. أرسـلوا الي صـديقه «طه» فجاء علي الفـور مسـرعا وأخـذه وأسـنده حتـي وصـل بـه إلي مسكنهما .. كان « زين » لايزل مطبقا علي الرسالة .. أخذها صـديقه من يده وطفق يقرأها حتى أتمها وقد امتلات نفسه حزنا على صـاحبه .. ولكنـه أيقـن مـن فـوره أن صـديقه يحتـاج لمؤازرتـه ومشـاركته والعمل على التخفيف عنه – فقال وهو يقسم : أنها تحتاج إلي دعائك اكثر من دموعك « زين » يا صديقي الفتك دوما رجلا قويـا كـالطود الشامخ لتكن كذلك .. لا تؤثر فيك العواصف ! .. ادعو لها بالشفاء .. ليس الشفاء بعيد عـن الله فسـبحانه هـو الشـافي ايـاك إن تستسـلم أوتخور كن قويا بالله وصابرا علي قدره ومحتسبا .

هدأت كلمات صاحبه من روعـه وسـكن سـكونا لحظيـا إلا أن دموعه التي تجري لا ينقطع فيضانها .. وفى حنو بـالغ يأخـذه الشـيخ «طه» في حضنه ويربت علي ظهره ورأسه وما انفك يجفف له دموعه الملتهبة والمتدفقة علي خديه وهو يقول لصـاحبه : عـلام الـدموع ؟ اتفقنا علي الدعاءلها بالشفاء .

غمغم« زين » بكلمات غالبتها العبرات : أنا صعبان علي – نفيهـا من الدنيا كلها .. أقصد الدنيا المتاحة لي إضافة إلي مرضها الخطيـر.. كان نفسي أكن بجانبها في محنتها .. ما أقسي حالتها يا « طه »! .. إنها

مريضة ومشلولة وغريبة .

وعاد « زين » للبكاء الموجع من جديد .. بكاء له نشيج يهتـز لـه فى عنف جسده كله .

والشيخ « طه » محاولا مواساته لينسيه بعض الشـي ولـو هنيهـة ولكن دون جدوي .

زهدت نفس « زين » في الدنيا وكل شي .. حتي أنه يمضي يومـه كله دون طعام إلا الفتات من الخبز .. لازمه الحزن وارتـدت حياتـه رداء الكآبة .. معظم أوقاته وحيدا ساهما تصاحبه الدموع وليله طويل وقاسي .. مجروح الجفون ومسهدا .. فـراح يـذبل وتتبـدل نضـارة وجهه حتي أسلم نفسه للوهن والاعياء .

❊ ❊ ❊

جني أولاد « الدرايسي » محصول القطن وباعوه .

كان الشيخ « النجداوى » قد علم بكـل الأحـداث التـي وقعـت فجاء للاطمئنان والسؤال علي « ناجية» بنت أخيه وكان مسرور أيمـا سرور لأخذ أولاد «الدرايسي » حقهم في ذات الليلة التـي قتـل فيهـا ابن عمهم وردوا الصاع صاعين فقال : رجال زين !.. رفعتم رؤوسنا في الجبل الغربي رحم الله أباكم كان رجل بألف رجل .

وانفرد « همام » بشيخ العرب ودار بينهما حديث لم يطلع عليه أحد صرح له « همام » بما في مكنون نفسه وما هو عازمٌ عليه تجاه الخواجة وذكر له أنه وإخوته لايزال الغيظ يأكل قلو بهم ولم تشف صدورهم بعد وأنه وإخوته سيرمون بالنار علي الذي أشعلها .

وافقة الشيخ « النجداوي » وهو يربت علي كتفه وناظرا له نظرة إكبار واحترام وقائلا له : كل يوم يزيد احترامك عندي وتزيد غلاوتك في قلبي يا «همام » يا ولدي .. كنت أتمنى أن يكون لي عشرة من الرجال مثلك من صلبى .

رد « همام» قائلا : كلنا أولادك يا عم الشيخ « نجداوي ».. اطلبنا نكن أمامك ولو في النار.

قال شيخ العرب في سرور بالغ : الله يحفظك لي يا حبيبي .. اسمعني يا « همام » ياولدي . أصغى «همام » له في انتباه بالغ ومطرقا وناظرا إليه .

وما انفك الشيخ قائلا : ليلة ما تنوى علي شئ تخبرني .. وسأرسل لك رجال ومعهم « معبد » ابن أخي وكلهم حاملين السلاح .

أثلجت كلمات الشيخ صدر «همام » فراح يشكر الشيخ داعيا له بالحفظ والبركة .

هذا ما كان من أمر الشيخ أثناء زيارته منذ بضعة أيام .

* * *

في ليلة ليلاء حالكة كانت آخر الشهرالعربي قام « همام » بإرسال شقيقه « فواز» وبضعة شباب من ذويهم آخذين النساء والشيوخ والأطفال جميعا والتوجه بهم إلى « نجع العرب » سرا دون أن يشعر بهم أحد.

اجتمع « همام » وشقيقه « يونس» وخمسة من أبناء عمومته وساروا قبل الثلث الأخير من الليل تجاه مخازن الخواجة الكبيرة والشاسعة .. هاجم « همام » وشقيقه « يونس » خفير المخازن .. سد «همام » فمه وكتف يده .. وطعنه « يونس » عدة طعنات بالقلب والصدروتركوه خلف البوابة الرئيسية جثة هامدة .

تركوا اثنين من الرجال عند البوابة لمراقبة الآتي إليهم واندفع خمسة رجال الي داخل المكان يسكبون الزيت والغاز علي البالات والأجولة المتراصة والمتكدسة وظلوا هكذا بعض الوقت حتي انتهوا .

بعدها أشعلوا النيران في كل مكان داخل المخازن ..وابتعدوا عن لهيب النيران والدخان الكثيف وراقبوا المشهد عن قرب و لم يغادروا حتي اطمأنوا على أن النار نشبت في كل ما هو موجود

بالمخازن .. ثم غادروا .

استقبلوا « معبد » ورفاقه من رجال « نجع العرب » وأشارلهم «همام » علي دورهم وبيوتهم هو وإخوته وابناء عمومته .

فراحوا يوزعون أنفسهم عليها لسكناها وحراستها ومنع من يحاول الاقتراب منها – وامسك «همام » بيد « معبد » وأخذه وأطلعه علي دولاب بالحائط به المال الذي يحتاجه وأعطاه مفتاحه وذكر له أشخاصا من المقربين لهم سيجدهم رهن إشارته ليعرفوه جميع أراضيهم الزراعية لكي يقومواعلي زراعتها .. وراح « همام »يوصيه خيرا بالمشروع التعليمي ويؤكد على ضرورة إن يسير ويعمل وينتظم به الأطفال ، وأخذ يحذره مرارا وهو يقول له : عندي المشروع التعليمي أهم من بيوتنا ودورنا أهم من أراضينا وحتي أرواحنا.

رتب «همام » كل شئ واطمأن تماما ، ومالبث مغادرا تحت جنح الظلام هو وشقيقه وأبناء عمومته إلي « نجع العرب » ليلحقوا بمن سبقوهم إلي هناك .

* * *

عند طلوع الشمس كانت النيران قد أتت علي جميع المخازن بكاملها وبقت تسري جمراتها تحت أكوام الرماد المتفحم .. والخفير ملقي مجندلا في التراب قتيلا عند البوابة الخارجية .

طار الخبر إلي الخواجة فجاء ممتطيا صـهوة جـواده « بـرق » في ركابه يلهث رجاله كعادتهم عاين بصره الحسـير مـن الغـيظ والـذل المكان ، وجده كتلة كبيرة وشاسعة من الفحم والسواد قد غطي كـل شئ ، صرخ : يا أولاد الكلـب !! .. تجـرع مـن نفـس الكـأس التـي قدمها بالأمس النار الذي أشعلها في ارض غيـره واكتـوي بهـا جسـد «مخيمر» نشبت هذا الصباح بقلبه هو. وأبصـر الخفيـر وهـو ذراعـه الأيمن مقتولا ومعفرا في التراب فكسره الخزي والهوان .. هو نفسـه الخفير الذي أمسك منذ زمـن « أبـو العـودين » الجوعـان والغلبـان بحفنات من القمح أراد حملها لأفراخه الجائعة .. فأسـلمه إلي سـيده الخواجة الذي قتلـه عـلي جـذع الشـجرة وأبـي إلا أن يعلقـه بحبـل مشنوقا تتأرجح جثته .. يا لعدالة السماء !.

وفي وقت وجيز كان الخواجة قد ابلغ السلطات ورفـع الامـر الي الحكمدار- واتهم «أولاد » الدرايسي « وابناء عمومتهم وعلي راسهم المتهم الاول « همام الدرايسي »

تحركت السلطات الآن ، لأن الخواجة أراد لها ذلك .. تحركت لأن محل الاعتداء كانت مخازن الخواجة وخفيرة القتيل ـ أمـا دون ذلك فلا شئ مهما كان الجرم وبلغت المصيبة .

الآن المجرم « عثمان »مطلوب حيا أو ميتا .. كان ذلك أمرا مـن الحكمدار شخصيا.

جاءت القوة مكونة من خيّالة فى المقدمة وخلفهم حرس الهجانة السود النوبيين على النوق والجمال .. وآخرين مترجلين وقفوا عند دار أولاد «الدرايسي» وسأل ضابط الخيالة عن «همام وإخوته» تصدي له « معبد » في شجاعة قائلا له :

ليس هنا

- إذن أين هو وإخوته ؟

- ذهبوا عند أهلهم في الصعيد .

- فى الصعيد ؟ .. اين تحديدا ؟ .

- لا أعلم .

- وما علاقتك به وبهم .

- لاشئ .. ولا تربطني بهم أي علاقة .. نحن استأجرنا منهم أرضهم وبيوتهم ليس إلا .

- هم مجرمون - كيف تعاملت معهم ؟

- لاهم رجال كل الزين .. المصلحة جمعتنا .. هم عرضوا بيوتهم وأرضهم .. ونحن استاجرناها منهم .

- وهل معك ما يفيد ذلك ؟

- نعم .

وأخرج له عددا من العقود وأعطاها له وبدا الضابط بتفحصها وقراءتها .

وبدأ أولاد عمومة «معبد» يأتون ويقفون خلفه حاملين أسلحتهم وكلما مر الوقت يزداد الحشد وكذلك أهل « مغاغة » رجال ونساء حتي أنهم حاصروا جميع القوة بكاملها.

وما انفك الضابط فارغا من قراءة العقود ورفع رأسه وجد الناس حوله وقوته قد حوصرت بالكامل فارتبك واضطرب وأعاد العقود إلي «معبد »مرة اخري .. سمع همسات وهمهمات لغيظ مكتوم لدي الناس وسمع شاب هامسا وقائلا : البلد ستولع لو اقترب أحد من دار عم «همام ».

لما رأي قائد القوة ذلك وسمع ما يخشي عقباه عدل عما كان ينوي عليه من تفتيشه للدور والبيوت واكتفي قائلا «لمعبد »وللناس : ابلغونا باي خبر او معلومة تصلكم.

ولم يجبه أحد.. ثم أمر قواته بالانصراف .. وغادروا .. وسط فرحة جميع الناس وعبارات التقريع والتعريض والتهكم علي الضابط وقواته قال رجل : مع السلامة يا طراطير الخواجة .

وقال آخر : لا وأنت الصادق « أحذية الخواجة » .

وفجاة اقتحم حشد الناس صبي في الثالثة عشرة من عمره وقف فوق أريكة خشبية أمام منزل أولاد « الدرايسي » كان هذا الصبي هو « سعد ابن ابو العودين » وهو النابه الذي ختم القرآن منذ سنوات ودرس في السيرة والتوحيد وأصبح مفوها ولسنا قال بصوته الطفولي العذب: أيها الناس من الواجب وقفتنا مع أولاد « الدرايسي » ومهما فعلنا فلن نوفي حقهم علينا كان لهم الفضل في تعليمنا هم الآن خرجوا من ديارهم لأجلنا .. تحملوا الحرب عليهم لأجلنا.. قتل منهم رجل وحرق محصوله كان لأجلنا نحن .. لنقف نحن الآن ليس معهم ولكن مع أنفسنا ..لنقف مع أنفسنا .

ورد رجل في حماسة : عشت ياولد « ابو العودين » وعاشوا أولاد «الدرايسي» ورد الجميع خلفهم : عاشوا عاشوا وقال الصبي «سعد» بأعلي عقيرته: لنفديك بالروح يا «همام»ورد الجميع خلفه : نفديك بالروح يا « همام » .

قال « معبد » : يا إخوان: أبو الرجال وقت الرحيل من هنا أمنني امانة وكان حريص عليها وهي إن المشروع التعليمي يظل يعمل دون توقف ولا ثانية واحدة قال الصبي« سعد » : ليحيا العلم.. ليحيا العلم .

الجميع يردد خلفه : ليحيا العلم .

أشار « معبد » لهم بيده وقال : الي المدارس .

ومشي جميع الناس متجهين حيث الدور المعدة لتعليم أطفالهم.

* * *

درج الزمان في طريقه غير ملتفت «وزين » في حالة من الإعياء والتعب الشديدين وهو علي هذه الحالة يأتيه في أحد الأيام صديقه «الشيخ طه » برسالة آتية من فرنسا أعطاها إلي « زين » الذي قام بفض غلافها بسرعة خاطفة وبدأ يلتهم بعينية كلماتها التي جاء فيها ..

**«عزيزي الأستاذ « زين »..**

**وصلتني رسائلك تقطر شوقا وحنانا ومودة بالغة .. أنت بحق رجل نبيل ولأجل نبلك وعظيم شرفك لن أكتمك سرا .. وبكل معاني الأسى والحزن أبلغك أن « ماجي » قد ماتت منذ أسبوع فقط وآخر كلماتها كانت : «زين » حبيبي .. « زين » حبيبي ! »**

**خالة ماجي**

أطلق « زين » صرخة مدوية أفزعت صديقه « طه » وكاد أن يصعق لوقعها .. خر علي صديقه وأخذه في حضنه وهو يهزه في عنف ويخاطبه : «زين» !.. « زين »! ..

دون مجيب .. وعيناه شاخصتان وثابتتـان .. وأنفاسـه تتـردد فى صدره ليس إلا .

عاد صديقه مناديا عليه : « زين ».. حبيبي وأخي ..

انعقد لسان « زين » وأصاب جسده بالكامل الشلل .. دون إشارة أو حركة تصدر عنه.. لم يأل جهدا صديقه في عرضـه عـلى الأطبـاء في قاهرة المعز .. دون جدوي ولا جديد .

الحالة تزداد سوءا.. أخبر « الشيخ طـه » خالـه« خليـل سـعادة » والذي نصحه بإرجاعه إلى الصعيد بسرعة .

وكان الرجل يعلم الأحداث الأخيرة لتواصله المستمر مع « أهل مغاغة » بحكم طبيعة تجارته في الخضروات والفاكهة فاتفقا سويا أن يحملاه علي متن مركب صباحا عبر النيل حتى يصـلا بـه « مغاغـة » ليلا فيدخلاها تحت جنح الظلام ... لأن « زيـن » مطلـوب القـبض عليه هو وباقى إخوته . وبالفعل تحركـت المركـب فى ضـحى نهـار اليوم التالي .

سارت تشق عباب النيـل متجهـة إلي الجنـوب وظلـت تتهـادي ملوحة بأشرعتها البيضاء كأجنحة الملائكة حتي جن الليل.

همس «الحاج خليل » لابن أخته « طه » قائلا : الأمور تسير عـلي ما يرام سندخل « مغاغة » خلسة دون أن يرانا أحد اسـمع يـا « طـه »

سننزل قبل « مغاغة » ونسلك طرق زراعيـة بعيـدة عـن الأنظـار لأن «زين » مطارد و مطلوب ونلف من الجهة البحريـة ونقصـد الاتجـاه الغربي وندخل للبلد من جهة الغرب .. أومأ « طه » موافقا لحـديث خاله وقال في صوت خفيض : نعم الرأي !.. صحيح .

وصمت الاثنان .

وبدا كل شئ قد كساه الحزن- الليل يلف الوجود .. والنيل بـدا حزينا كئيبا.. والنخيل علي شاطئيه كأشـباح مخيفـة .. لا صـوت إلا رياح خفيفة تحف الأشرعة.

نظر «طه » إلى صديقه الملقي علي الأرض بينه وبين خالة «خليل» والحزن يأكل قلبه وفي دهشة غير مصدق لما آلت إليه حالـة صـديقه ورفيق دربه .. وراح يتساءل : أهذا هو « زيـن» ؟ أهـو الفتـي العفـي القوي هذا الذي كان يملأ الدنيا حيويه وطاقة الذي كان حديثه دوما ملئ بالأمل والبهجة والفرح ؟! أصبح هكذا .. جثة ! .. يا الله ! .. ما أسرع تبدل الحال وتغير المـآل !..يا لقسوة الدنيا وتكدر صـفوها .. سافر معي إلى القاهرة منذ بضعة أشهر وهو رجل يملأ السمع والبصر .. رجلا سندا وعونا .. الآن أعود به والعدم سواء .. يا لمصـابي فيـه ويالفجيعتي !! .

وهو علي هذا الحال شرع المراكبي في الغناء وراح يترنم بكلمات

اغنيته التي تناغمت مع الجو الثقيل الحزين .. ومدت ظلالا سوداء فوق سواد الليل البهيم في صوته الشجي الحزين

آه.....آه ........آه ........آه

**النيل والليل والويل**

**النيل اللي كان يوافيني ويصافيني ليه الليلة حزين ؟!**

**والليل اللي كانت روحي تشكي له جروحي ليه في قلبي انين ؟!**

**والويل بقي حضني بعد حبايبي قولولي بس فين؟!**

**فين حبايبى فين ؟**

**فين يا نيل ؟**

**فين يا ليل ؟**

**ليه بس فاتوني للويل ؟!**

آه....آه....آه....آه

وقع الأغنية سكب الدموع الغزيرة من عين « طـه » فبكـى بكـاءا موجعا .

ساروا هكذا في الليل حتي اقتربت المركب من مشارف « مغاغة»

اغنيته التي تناغمت مع الجو الثقيل الحزين .. ومدت ظلالا سوداء فوق سواد الليل البهيم في صوته الشجي الحزين

**آه.....آه ........آه .........آه**

**النيل والليل والويل**

**النيل اللي كان يوافيني ويصافيني ليه الليلة حزين ؟!**

**والليل اللي كانت روحي تشكي له جروحي ليه في قلبي انين ؟!**

**والويل بقي حضني بعد حبايبي قولولي بس فين؟!**

**فين حبايبى فين ؟**

**فين يا نيل ؟**

**فين يا ليل ؟**

**ليه بس فاتوني للويل ؟!**

**آه....آه....آه....آه**

وقع الأغنية سكب الدموع الغزيرة من عين « طـه » فبكـى بكـاءا موجعا .

ساروا هكذا في الليل حتي اقتربت المركب من مشارف « مغاغة»

ما تمنيت .. إن اليأس القاتل ما دلف إليك الامن باب المني الكاذب.. ليتك ما أحببت..إن الطعنة النجلاء أتتك من يد الحب القاتل! ما لي أري الوجود بعدك حزينا كئيبا والأرض عادت سيرتها الأولي خرابا لايمشي عليها حيوان ولا يخطر فوق أديمها إنسان ؟! .. ولا اسمع إلا صوت الزعيق والعويل!!.

❖ ارتفع صوت بكاء «طه» فأيقظ خاله « الحاج خليل سعادة. » .. فزع الرجل وراح يحتضن «طه»ويهدئ من روعه واندفع « طه » مرددا : مات يا خالي.. مات « زين » يا خالي.

❖ كفكف الرجل بعبرات مجيبا : البقاء لله يا ولدي .. إنا لله وإن إليه راجعون..

❖ عاد« زعفران » بعدما أبلغ « معبد » .. وعند طلوع النهار كان «همام » وشقيقه « فواز» و «يونس » وابناء عمومتهم و« الشيخ النجداوي » وبصحبتهم مئات الرجال المسلحين – أتوا وكأنهم جيش فاتح وقد استقبلهم أهل « مغاغة » ونواحيها بالفرح والتهليل وانضموا إليهم وساروا إلي دار « زعفران » .

❖ دخل « همام » وشقيقاه حيث جثمان أخيهم .. أزاح « همام » عن وجهه الغطاء وراح يمطره بسيل من القبلات باكيا وبجواره أخواه يبكيان أيضا وسال «همام » « الشيخ طه » عن مرض «زين »

❖ أتى « طه » بكوب لبن دافئ ومحلي ثم أسند صاحبه علي صدره وراح يساعده على شربه ... ولكن لم يستطيع ولم يرتشف منه صاحبه رشفة واحدة ..أعاد المحاولة ثانية دون جدوي.

❖ وعيناه عالقتان بالقمر والنخلة لاح له وجة محبوبته «ماجي» بجوار القمر تنظر له مبتسمة بادلها البسمة وفجأة مد يده المشلولة ورفعها ولوح بها .. فرح « طه »مذهولا .. طفق ينادي عليه: «زين » ! .. «زين » ! .. دون إجابة من صاحبه.. نظر « طه » إلي الجهة التي ينظر لها صاحبه وسأله : إلام تنظر ياصاحبي ؟ .. ماذا هناك ؟ .

❖ إلا أن صاحبه مشدوها وعالقا بصره هناك بوجه محبوبته .. والابتسامة لا تبرح مفارقة وجهه.. وبدأ بصره يغيم شيئا فشيئا ... وبدا الوجه شبحا معتما وما انفك غائبا عنه .

❖ غمغم « زين » بكلمات متقطعة : مم ااا ج ماج...ماج ! ، ثم القي راسه وفاضت روحه .. وسكن الجسد المنهك الي الابد .

❖ « طه » وهو يبكي و يغطي وجه صديقه.. وأري الوجه الوسم الجميل الطلعة بعدما امتص الموت جذوة الحياة المتقدة وألقاه كالرماد !! .. اغتال الموت ربيع حياته فأسلمه للرياح العاصفة أوراقا يابسة!!.

❖ وشرع « طه » يبكي صاحبه ورفيق دربه ويرثيه قائلا : ليتك

وما حدث له فحكي له « طه » كل شي بالتفصيل وقد أتي علي قصة حبه لابنه الخواجة وما جري من أحداث - حتي ماتت غريبة في «باريس» وما أصاب « زين » بعدها وحتي عاجلته المنيه ليلة أمس .

❖ أمر « همام » بنقل جثمانة إلي دارهم لكي تخرج جنازته من دار أبيهم واشيع خبر وفاة «زين» فجاءت «مغاغة » عن بكرة أبيها تشارك أولاد « الدرايسي » في مصا بهم الجلل.. الرجال والنساء والأطفال . تناهي الخبر إلي جميع نواحي « مغاغة » وقراها وحتي الغروب فجاء « الشيخ خضر الغرباوى » ومعه وفود من أهل الغرب وكذالك مشايخ وعمد طنبدي وشم ودهروط وشارونة ونزله بلهاسة وبلهاسة .. وبعد مدة خرجت الجنازة محمولة علي أكتاف الرجال صانعة مشهدا مهيبا وجليلا لا يبصر الرائي آخر الحشود .. وطغي علي المشهد صوت الباكيات والنائحات.

❖ فى الحقيقة الجميع بكي فى هذا اليوم لفقد شاب صالح ومليئ بالخير .. مقدام و لكم ساهم في تعليم أبناء « مغاغة» .

❖ تم دفن الجثة وعاد « همام » وشقيقاه والجميع حيث جلسوا في سرادق العزاء ..

❖ نعي الشيخ « طه » صاحبه ورفيق دربه بعد أن فرغ من دفنه قائلا :

❖ **كفي حزنا بموتك إني قـــــ... د نفضت تراب قبرك من يديا.**

❖ **وكانت لي في حياتك عظات.. فأنت اليوم أوعـظ منك حيا .**

❖ ما كانت القوات ولا السلطات لتستطيع أن تفعـل شـيئا إزاء أولاد « سليم الدرايسي » .

❖ فالكـل معهـم المشـرق والمغـرب إضـافة الي « مغاغـة » والجميع يحمل سلاحه حسبا لمقدرته .

❖ إن المخاطرة ستكون وخيمة العواقب .. وأول الهلكي هي تلـك القـوات مهمـا كانـت .. فبقـوا بعيـدا يتـابعون ويراقبـون مـا استطاعوا.

❖ وإزاء هذا الوضع الخطير فكـر همـام بتوجيـه ضـربة أخيـرة وقاضية للخواجة .. وبنظرته الثاقبـة أدرك حالـة الـزخم والالتفـاف الشعبى وتوحد الناس .. فأيقن انها لحظات فارقة لابد من اغتنامها ! اجتمع بالشيخ « النجداوى » وهمس له ؟ اسـمع يـاعم الشـيخ ، إمـا نصرة أو كسرة !! .. ، استغرب الشيخ وسأله : ما قصدك يا ولـدى ؟ أجابه « همام » فى احتداد وحماسة : إما نعيش أحرارا أسيادا فى أوطاننا كالرجال وإما نظل والمواشي سواء .

❖ انتفض الشيخ « نجـداوى » لوقـع كلماتـه وانـدفع غاضـبا وقائلا : أبدا .. والله أبدا .. لن يكون .. ولدنا رجالا وسنعيش رجالا

وسنموت رجالا أحرارا .. نحن رجال زين .. ونحن أمامك يا ولدى .. انظر ما انت قادم عليه وسنتبعك ..

❖ ابتسم « همام » فى رضا لوقع كلمات وحماس الشيخ فراح يربت على كتفة مقبلا رأسه وقائلا : سلمت يمينك ياعم الشيخ «نجداوى » وصمت « همام » وبدت ملامح الجد بادية عليه وعاد هامسا للشيخ : ياعم الشيخ « نجداوى » عليك أن تجمع ما تستطيع جمعه من قبائل العربان فى الجبل الغربي وفى محيط بنى سويف ، والفيوم ، والمنيا .

❖ أومأ الشيخ فى رضا موافقا وقائلا : اعتبر الجميع موجودين وبسلاحهم ياولدى . ثم صمت الشيخ برهة وعاد سائلا : علام تنوى يا « همام » يا ولدى ؟..

❖ أجابه « همام »: سأخبرك حينها ياعم الشيخ .. اطمئن أنت أول من تعلم بأى شئ قبل حتى اخوتى .. سوف أرسل لك وأخبرك قبيل لحظات التحرك الأخيرة ..

❖ هز الشيخ رأسه مسلما بالأمر وراضيا وهو يقول : أمرك ياولدى .. كما تحب وترغب .

❖ اجتمع « همام » وأولاد « الجبلاوى أبو خطوة » وشقيقه «يونس» فى دار أولاد « الجبلاوى أبوخطوة » سرا وبالليل ومعهم

جميع آباء من تعلم مـن أولادهـم بـدار أولاد « سـليم الدرايسـي »..
الجميـع مملـوء بالشـجاعة والثقـة والحماسـة وابـدوا اسـتعدادهـم
ومباركتهم لاى أمر يوافق رغبة « همـام الدرايسـي » ويقبـل عليـه ..
حدثهم « همام» إنهم جميعا فى مركب واحد إما أن يقفوا فى وجه تلـك
الرياح العاتية وإلا ستغرق ويغرق الجميع .. رد الصبى اللبق اللسـن
سعد ابن أبو العودين : على بركه الله ياعم « همام » .. نحـن فـداءك ..
قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنـا هـذا معتقـدنا كمـا أخبرنـا بـه رب
العالمين ..

❖ والجميع فى صوت واحـد : نحـن معـك فى أى أمـر يـا أبـو
الرجال وأرسل « همام » رجاله وذويه إلى الشيخ « خضر الغربـاوى »
ولمكانة الرجل الدينية والأدبية فقد التف حوله جميع قرى الغروب –
برطباط ، والقايات ، وطنبدى ، والشموم ، آبا ، دهروط .. وقفـادة ،
وكذلك ملاطية ، وميانة ، وباقى القري فى محيط « مغاغة » .. وكـان
لبلدان شرق النيل موقف شجاع والـذين وقفـوا بقلـوبهم وقـواربهم
فقطعوا الطريق المائى وأصابوه بالشلل التام فمنعوا الملاحة شـمالا
و جنوبا خلال النيل السعيد – وكانت البداية منهم .

❖ أرسل همام للشيخ « النجداوى » بأن يقـود القبائـل ويطـوق
القوات من الناحية الغربية ويقبض على كبيـرهم ويـتحفظ عليـه دون
أى أذى أو إهانة له .. وأهل الغروب جميعا بقيادة « نعاس الشـلابى »

وهو رجل الشيخ « خضر الغرباوى » من ناحية الجنوب وبداية من قرية « الشيخ زياد وليفعل بالقوات الموجودة كما سيفعل « الشيخ النجداوى » وقبائل العربان ..

❖ ومن الشمال يطبق أهل « ملاطية ، وميانه ، ودهمرو ، وسلاقوس ، وصفانية .. وباقى العزب التابعه لهم .

❖ وانضم « همام » وشقيقه « يونس » وأولاد عمومتهم إلى معسكر « الشيخ النجداوى » .. ومن مكانه يبعث برسله إلى الاخرين فى مختلف الجبهات .. وطوق أهل الشرق القوات من جهة الشرق – بينما تولى « معبد » ورفاقة حراسة بيوت أولاد « سليم الدرايسي » وانضم إليه أهل الداخل فى « مغاغة » وحاصروا قصر الخواجة ومنعوه من الخروج .

❖ عند ذلك بدت « مغاغة » ومحيطها منطقة معزولة عن القطر المصرى وأصيب الصعيد الداخلى بالشلل التام لقطع جميع الطرق إليه وخاصة الحركة فى النيل السعيد .

❖ تناهت الأخبار إلى « قاهرة المعز » وتناولت الصحف فى مطلع صفحاتها أخبار « مغاغة » فاقلق الوضع « الخديوى » والذى أرسل مستشاريه إلى « مغاغة » وطلبوا مقابلة الشيخ « خضر الغرباوى» وكذلك « همام الدرايسي » ولكنهما رفضا مقابلتهم

والحديث اليهم وأبلغوهم أن الخديوى – حاكم مصر ليس هو المعنى بذلك – وإنما من يعنيهم هو سلطان الباب العالى .. ولكن الخديوى لا يقدم ولا يؤخر لديهم ..

❖ إن مظالمهم ليس مؤهلا لها أفندينا وانما الباب العالى فى تركيا .. رجع مستشارو الخديوى إليه يبلغونه الأمر فارتعد واضطرب ولم يقو على الحديث والمخاطبة .. ازدرد ريقه وصمت ساهما واجما .. ثم قلب الامر على جميع الوجوه فرأى من الحكمة التودد والملاطفة إزاء هذا الوضع الخطير حتى لا تندلع الاحتجاجات والتمرد فتعم مصر المحروسة ثم خاطب مستشاريه قائلا : بلغوهم بأن حضراتنا سوف أذهب إليهم فى الصعيد لأسمع شكواهم ومطالبهم .

❖ وبالفعل عاد مستشارو الخديوى ليخبروا من فى « مغاغة » بقدوم الخديوى إليهم فى حال موافقتهم على ذلك .

❖ إزاء هذا العرض من قبل مستشارى الخديوى ، اجتمع «همام » والشيخ « خضر الغرباوى » وكذلك الشيخ « النجداوى» وبعض عمد ومشايخ بلاد الغرب من طنبدى ، ودهروط ، وآبا ، وشم ، ولما كادوا أن ينتهوا إلى رفضهم مقابلة الخديوى ، وقف فيهم « همام » وأثنى على الجميع ورفع مكانتهم من الاحترام والتبجيل لديه ثم أردف قائلا : احترامى لسادتى وإخوانى ولكن هناك مثل

يقول : لوح بعصى العز ولا تضرب بها .. ويكفينا عزة ومنعة بأننا اجتمعنا جميعا على قلب رجل واحد .. لقد بقيت لنا إرادة وعزيمة يقودهما الفكر والوعى وهذا ما يملؤنى فخرا ياسادتى .. لقد نجحنا بالفعل إذ رعبنا اكبر رأس فى البلاد لنقرر نحن مقابلته .. فليس من الحكمة الرفض ..ولا خسارة مطلقا مع القبول .. نتحدث إلى الرجل ولنرى ما هو صانع .. إن وافق مبتغانا فبها ونعمت وإلا التهديد وتصعيد الاحتجاج ..

❖ هز الجميع الرؤوس موافقة لرأى « همام » وما لبث الشيخ «خضر الغرباوى» قائلا : نعم الرأى يا « همام » يا ولدى .. انه القول السديد .. إذن فلنقابل الرجل . وافق الجميع وحددوا المقابلة بعد ثلاثة أيام فى المسجد الكبير « بمغاغة » عقب صلاة عصر ذلك اليوم.

❖ وتم إبلاغ رسل الخديوى بالموافقة وبتحديد الزمان والمكان .. وبعده جلس « همام » والشيخ « خضر الغرباوى » وكذلك الشيخ « النجداوى » وبعض عمد ومشايخ قرى الغرب وقد اتفقوا فيما بينهم على إن الموجودين هم المعنيون بمقابلة الخديوي – وعنهم سيتحدث كلا من الشيخ « خضر الغرباوى »و « همام الدرايسي » ويعرضوا مظالم وشكاوى أهل « مغاغه » وما فعل «الخواجة حبيب » بالناس ومحاصرة القوات للدور والمنازل .

❖ عند ذلك صمت « الشيخ بركات » وابتسامة حلوة بدت على محياه ثم قال : إنها لحظات فارقة .. تلك اللحظات التى يجتمع فيها الناس على قلب رجل واحد .. لحظات نادرة فى تاريخ الأمم من هذه اللحظات لكى تأتى وتصبح واقعا يلزمها تضافر الجهود واجتماع عوامل كثيرة ، قاطعه « سالم » : ماهى تلك العوامل ياعمى ؟ أشار عليه « الشيخ بركات » بالصبر ودون مقاطعة لحديثهُ .. ثم هز رأسه فى عظة وتدبر والابتسامة الحلوة لاتفارقه وقال : الوعى والإدراك اللذان يحركان الشعور العام والعزيمة والإرادة الماضيتين . وحسن التخطيط والتدبير من قيادة واعية .. إن كل ذلك لا يأتى ولا يتحقق فى طرفة عين وانتباهتها لكن حصيلة سنوات طويلة من العرق والجهد نحو التنوير ، وغرس مبادىء وتعليم جيل بأكمله . إن اللحظات الفارقة فى تاريخ الأمم قد لاتتحقق مطلقا .. وقد تقع حينما تغدو أمرا مقضيا لا مصرف عنه إذا اجتمعت لوقوعها كافة أسبابها وتواجد المناخ الذى يظلها ويضمها وتترعرع فيه .

❖ وطفق « مأمون » متلهفا ومندفعا :

❖ المهم ماحدث بعد ذلك ياعمى .. ما الذى حدث ؟

❖ وعاد « الشيخ بركات » سيرته الأولى ليقص ويحكى فى أسلوبه الشائق والأخاذ .

❖ مرت الأيام سريعا وخرجت « مغاغـة » فى اسـتقبال موكـب «الخديوى » يتقدم حرسه الملكى .. والموكـب يمـر بـين الهتافـات وعبارات الترحيب بالضيف الكبير حتى وصل إلى المسجد الكبيـر.. توقف الموكب .. ونزل الخـديوي يتقـدم حرسـه .. اصـطف عمـد ومشاريخ وقرى « مغاغه » وتوسـطهم « الشـيخ خضـر الغربـاوى » و«همام الدرايسي » وسلم الخديوى على الجميع ودلف خلف حرسه إلى المسجد واتبعه الجمع المصطف وباقى الناس

❖ اجلسوا الخديوي فى المقدمة ومن حوله حرسه

❖ تم تلاوة ماتيسر من القرآن ..

❖ تم وقف الخديوى فى مواجهة الجميع متحدثا بعـد أن حمـد الله وأثنى عليه قائلا : الشكر لاهل مغاغة عـلى حسـن الترحيـب بـي والشكر موصـول لهـم إذ اسـتقبلونى فى بيـت الله فمنحـونى شـرف الضيافه فى كنف رب العالمين .. وجئت إليكم لأسمع طلباتكم وهو واجبي نحوكم فتفضلوا .. وختم وسلم .

❖ حث « الشيخ خضر » – « همام » على أن يقف متحدثا ولكن « همام » رفض اكراما لمنزلة الرجل وفضله وكبر سنه بيـد أن الشـيخ خضر أقسم عليه أن يتقدم للحديث فلم يجد « همام » بدا بعـد قسـم الرجل – فتوقف متحدثا وقائلا :

❖ «أعز الله مولاى وأدام ملكه .. لا أحد منا يستطيع تقدير شرف ضيافتكم ولا أن يوفيها حقها وقدرها .. وحتى لا ينفرد أحد بهذا الشرف فيتباهى به على الآخرين فى مقبل الأيام – فآثرنا جميعا أن ضيافتكم تكون لدى أكرم الأكرمين ورب العالمين .

❖ استحسن منه الخديوى حسن بيانه وعذوبة حديثه ووقع إعجابه فى نفسه فراح صاغيا له وعالقا بصره به .

❖ واصل « همام » حديثه فجاء على الجرائم التى اقترفها الخواجه وكيف أنه استولى على أراضي الناس ظلما وعدوانا .. ومر على جريمه قتل « ابو العودين » الجوعان و العريان وكذلك قتله «الجبلاوي أبو خطوة » والتمثيل بجثتيهما .. أن وصف « همام » للجرائم ودوافعها كان له أبلغ الأثر فى نفس الخديوي – إذ فاضت عيناه بالدموع ، من هول ماسمع ثم جاء على ذكر حصار القوات للدور والمنازل و « مغاغة» بكاملها بامر الحكمدار – حماية للخواجة « حبيب » وتلبية لرغبته – وتماديا فى قهر الناس وظلمهم ..ثم ختم «همام » خطابه قائلا وسائلا الخديوي : حدث ذلك ووقعت كل هذا الجرائم وعين حضرتكم حارسة لهذه البلاد .. تم ارتكاب كل هذه الفظائع فى غيبة عدالتكم .

❖ عندها انتفض الخديوي غاضبا واندفع سائلا فى دهشة وغرابة : أو معقول ؟ .. وقعت فعلا هذه الجرائم ؟ ... اندفع الجميع

فى المسجد من أهل « مغاغه » يؤكدون له ماحدث .. فلما اطمان إلى صحه جميع الروايات وتحقق من وقوع هـذه الجـرائم أصـدر الأمـر لحرسه وبمسـاعدة مـن القـوة المتواجـدة بـالقبض عـلى الخواجـة والتحفظ عليه وتجريده من ألقابه ومصادرة جميع أراضـيه وتوزيعهـا على الفلاحين – وعزل حكمدار الأمن وجميع القادة الذين وقفوا على تحريك هذه القوات وحاصروا البيوت والمنازل ومداخل ومخـارج « مغاغه » .

❖ ورأى أهـل « مغاغـة » جميعـا الخواجـة « حبيـب » موثوقـا ومجـرورا مـن حـرس الخـديوي تنهـال عليـه اللعنـات والسـباب والشتائم خزيانا وذليلا ومـأخوذا نحـو المجهـول – حتـى تـم نفيـه خارج البلاد مجردا من كل شي كأنه سيق إلى لحده .

❖ ودعت « مغاغة » الخديوي بـالفرح والزغاريـد والـدعوات بدوام عزه وملكه .. ثم فـرغ النـاس للاحتفـاء بـأبو الرجـال « همـام الدرايسي » وحملوه على الاعناق وهو يصرخ فى الناس : لا ..لا .. بل احملوا عم « الشيخ نجداوى » و« معبد » و« الشيخ خضر الغرباوى » .. والفتوة « نعاس الشلابى » أنا المدين لكل هؤلاء الرجال .. وعمد و مشايخ البلاد من يستحقون كل التقدير والناس جميعا وأهل الشرق والغرب .. بارك الله فى الجميع « عند ذلك صمت الشـيخ وهـو يهـز رأسه فى عظة وتدبر .. وفى إعجاب وفخـر نظـر الثلاثـة إلى « الشـيخ

بركات » وهم فى حالة من الانبهار الشديد ومعقودي الألسنة ! .

❖ خرج « الشيخ بركات » عن صمته قائلا : هكذا كـان « همـام الدرايسى »

❖ بعيد النظر واسع الحيلة .. شجاعا ذكيا .. وصاحب عزيمـة وإرادة ماضيتين .. وكان حوله رجال بحق لم يتخلفوا عنه فى أى أمر .

❖ ثم ندت على وجه « الشيخ بركات » زفرة أسي طويلة وطـن رأسه ببيت الشعر الذى نعى به الشيخ « طه » صديقه « زين » .

❖ **وكانت لى فى حياتك عظات فأنت اليوم أوعظ منك حيا**

❖ فهمس الشيخ فى إيمان وتسليم وقائلا :

❖ **« نعم .. كفى بالموت واعظا » !**

تمت بحمد الله

**الكاتب / محمد عبدالعليم**

**المحامي**

**مغاغة – طنبدي**